

وردة بلون الدم



اسم الكتاب: وردة باليونان
التأليف: محمد هويداي
نوع العمل: رواية
إخراج فني: سالم عبد المعز سواح
غلاف: محمد دربالنة

رقم الإيداع: 2023/ 00000

الترقيم الدولي: 978-977-00000-0-0

الناشر: دار الراوي للنشر والتوزيع

٣٤ ش المدارس - الصيادين - الزقازيق - مصر

Facebook



Email



Tel



whats



WhatsApp

الراوي للنشر والتوزيع

elrawy502@gmail.com

002 01551440085

002 01010928048



المدير العام / عبد الغني عبد الله

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار الراوي للنشر والتوزيع

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه الهادة بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

وردة بلون الدم

تذكرة سفر مجانية إلى دير الزور

رواية

محمد هويدي

بطاقة شكر

إلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل..

نهر عظيم يشق رمال الصحراء، في رحلة تمتد الاف
الأميال، يجتاز فيها حدود وسدود، وفيافي وقفار، وفي
بقعة معينة، شرقي سوريا، يخلع بزته الزرقاء الجميلة،
ويرتدي حلة حمراء قاتمة، حيث جرت على ضفافه
معارك دامية، سالت فيها الكثير من الدماء، واختلطت
بمياهه العذبة، فحملها معه في رحلته الطويلة..

الإهداء

إلى مدينة لا يليق بها إلا أن تكون عظيمة
إلى شبابها الذين دفنوا في حدائقها، فأنبثوا أزهاراً يفوح شذاها في
شوارع المدينة وأزقتها
إلى من تشرّد من أهلها وأصبح " لاجئ " في غفلة من الزمن، يقاسي
أوجاع الغربة بعيداً عنها، و ينتظر العودة إليها بفاغص الصبر
إلى الصامدين فيها
إلى الجرح الذي لن يندمل
إلى الحب القديم والجديد
إلى دير الزور .. "

أهدي هذا العمل المتواضع .

المقدمة

صمت، وشوارع مقفرة إلا من بعض الجثث المرمية على حافتي الطريق وهي مقيدة الأيدي والأرجل ومعصوبة الأعين، ظلام دامس يغطي كل ألوان الطبيعة، ويصبغها بسواده الكئيب، ولكن النيران التي اشتعلت في عدد كبير من المنازل أضاء لها طريق خروجها من ذلك المكان المرعب.

انتهى بها المطاف إلى موقع تعرفه جيداً، وهو آخر محطة شمال المدينة قبل مغادرتها إلى خارجها، جسر يتألف من أربعة ركائز شاهقة، تربط بينها مجموعة كبيرة من القضبان المعدنية المتشابكة، بإسلوب هندسي بديع، وقد روعي الجانب الجمالي أثناء عملية تشييده.

أما الآن، فهو خالٍ من كافة أشكال الحياة، لا زوار، ولا عشاق، ولا بائعين متجولين، وهذا ما جعل منه مكاناً موحشاً موبوءاً، أما عن مياه النهر في أسفل الجسر، فقد تعذر رؤيتها تماماً، بعد أن غطاها السواد القاتم، تجري بسرعة بصمت مُطبق، وتريد الابتعاد من هنا قبل أن تصيبها إحدى لعنات هذا المكان، حاملة معها الكثير من الأشلاء والدماء، سمعت أصوات غربان قادمة من الأعلى، وعندما

رفعت رأسها شاهديتها تحلق بشكل دائري وتنظر إلى الأسفل، ولفت انتباهها وجود سُحب متفاوتة الألوان، يغطي عليها السواد، وهي تحجب الأنوار القادمة من السماء، أما عن الأصوات التي سمعتها أسفل الجسر فهي تعود إلى معارك شرسة تجري بين القوارض للحصول على أكبر كمية من لحم الجثث المتعفنة على شاطئ النهر، باغتها صوت مرتجف:

_ أسرعي يا نور لم يتبق إلا القليل.

لم تكن تعلم من هو المتحدث، بل ولم تلتفت لتراه حتى، فهي بحاجة إلى أي إنسان يساعدها على الخروج مهما كانت صفته، ما يهم الآن هو أن يكون هذا الإنسان يتمتع بصحة جيدة " حتى مغادرة المدينة على أقل تقدير " وقادر على حملها إذا تطلب الأمر.

كانت متثاقلة الخطى، قد أنهك جسدها حتى استطاعت الوصول إلى هنا، وجهها شاحب وعيناها غائرتان، وقدامها عاريتان تخلف وراءها بقع صغيرة من الدماء، ولكن ذلك لم يُضايقها، هي تفكر الآن في الابتعاد عن هذه المدينة بأسرع ما يمكن، وبأي ثمن ..

سطع في الأفق وميض جعلها تلتفت إلى الخلف، لم يستمر طويلاً، وأخذ نوره يتآكل شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً، ثم دوى صوت من جهة ذلك الوميض مزّق صمت المكان ووحشته، وتسبب في فرار

بعض الطيور من شجر الغرب و الصفصاف على جانبي الجسر، وما هي إلا لحظات حتى ارتفعت كتلة لهب من جهة المدينة أعقبها صوت انفجار شديد و تناثر قطع حديدية وحجارة من حولها، احتضنتها الأرض بعد أن تعثرت خطاها، رفعت رأسها قليلاً وشاهدت اهتزاز الجسر يميناً وشمالاً، ثم امتدت إلى كتفيها يدان ترتجفان وأنهضتها من على الأرض.

_ هل أصابك مكروه؟

هزت رأسها نافية، وكأنها فقدت القدرة على الكلام، تابع ذلك الصوت.

_ أمتار قليلة ونغادر هذا المكان، هيا بنا.

أحست بأن الأرض قد فرشت بالشفرات الحادة وقطع زجاجية محطمة، وكأنها ترفض سيرها وتتشبث بقدميها بقوة، قاومت ذلك الشعور واستمرت بالعدو، وعندما شارفت على الوصول إلى الجانب الآخر من الجسر سمعت أصواتاً مألوفة، إنها ألحان دير الزور، فهي تجيد العزف بشكل مذهل، وها هم محاربوها يبدؤون رقصتهم المسائية ...

انفجارات شديدة يعقبها إطلاق نار كثيف، وأضواء تظهر وتختفي بلمح البصر، سمعت صوت مرور الرصاص من فوقها وارتطام بعضه بركائز الجسر.

_ يا لهذا الجسر الذي لا نهاية له ! .

خرجت منها تلك الكلمات على شكل لعنات، وهي تنظر إلى تلك الأمتار القليلة التي تفصلها عن جانب الجسر المقابل، سطع ذلك الوميض ثانية، نظرت نحو المدينة لتشهد تلك اللوحة الحمراء المتوقع ظهورها بعد عدة لحظات، ولكن على عكس المتوقع، سمعت صوت صفير مشابه لصافرة حكام مباريات كرة القدم، والتي تعلن عن انتهاء المباراة، ويبدو أن تلك الصافرة أعلنت انتهاء مبارياتها الخاصة ..

دوي انفجار على بعد أمتار منها مزق الحبال المعدنية التي تربط ركائز الجسر، بالإضافة إلى تلك الأمتار المتبقية ..

بحثت عن تلك اليدين المرتجفتين التي أنهضتها قبل قليل، ولكنهما اختفيتا بفعل المفاجأة غير المتوقعة، غطى الدخان ورائحة البارود المكان، أحست بحرقه أصابت عينيها، وأصابتها حالة من اللاوعي، بدأ الجسر يتمايل بقوة ويتداعى نحو الأسفل، شعرت بأنها سوف تسقط من أعلى الجسر، وجاهدت لتمسك

بأي شيء يقيها ذلك السقوط، ولكنه بدأ محتمماً عليها، وكان ذلك الجسر يلفظها ويرفض وجودها.

حدث ذلك بسرعة كبيرة، سقطت من الأعلى نحو المياه السوداء، وكانت حجارة الجسر وحباله تتساقط بقوة من حولها، أخذ جسدها يرتجف عندما اكتشفت بأن مياه النهر غيرت لونها إلى اللون الأحمر بعد اختلاطها بدماء الجثث، صرخت بأعلى صوتها، ولكن لم يلتفت أحد إلى صرخاتها، خاصة مع وجودها في مكان كهذا، وعلى الرغم من أن الفكرة أفزعته بادئ الأمر، إلى أنها حاولت التمسك بإحدى الجثث الطافية التي مرت بجانبها، كانت منتفخة، تخرج منها رائحة مقززة، ولكن يدها استطاعت الوصول إليها والإمساك بشيء ما، يبدو أنها فخذ منتفخة، أو جسد نحيل حتى بدأ كأنه فخذ، هذا لا يهم الآن، المهم أن تغادر بأي طريقة، ولو عن طريق جثة منتفخة ..

وعندما حركت نفسها نحوها لتتشبث بها جيداً، أفلتت منها، هكذا ببساطة انهار كل شيء، ابتعدت الجثة والتهمها السواد المطبق، حاولت الوصول إلى أخرى، ولكن لا شيء، وفي النهاية، أغمضت عينيها وتركت جسدها يغوص في أعماق النهر المظلم، ثم اختفى كل شيء من حولها وعمّ الظلام.

فتحت عينيها وهي تصرخ وترتجف، تحسست فراشها ونظرت إلى ماريا الصغيرة النائمة بجوارها، أمسكت بكوب الماء وشربت منه وبدأت تقرأ تعاويذها المعتادة.

لقد كان ذلك أحد الكوابيس التي تراودها كل مساء ..

الفصل الأول

١

دير الزور

٢٤ شباط / فبراير ٢٠١٢

الساعة الثامنة صباحاً

تسللت أشعة الشمس الذهبية من نافذة غرفتها الصغيرة، وأخذت تداعب وجنتيها وعينيها، وتحثها على الاستيقاظ، كانت أصوات السيارات والدراجات النارية وهي تقطع الشارع المبلل مألوفاً لدى استيقاظها في هكذا يوم من أيام شهر شباط /فبراير الماطرة، الجو بارد ويدعوها للعودة إلى النوم من جديد، أرخت أجفانها معلنة نهاية تلك الليلة المشؤومة المليئة بالأحداث المرعبة والاستيقاظات المتكررة، وعلى الرغم من أنها اعتادت رؤية الكوابيس الكثيبة والأحلام المفزعة فيما مضى، إلا أن ما شاهدته البارحة كان مرعباً إلى حد بعيد، بقيت حبيسة فراشها عدة دقائق بعد أن فشلت جميع محاولاتها للنهوض ...

مدّت يديها الناعمتين إلى الرف الخشبي المجاور لسريها، وأمسكت بقطعة صغيرة من الكريستال، دائرية الشكل، محاطة بإطار نحاسي ويتدلى من أعلاها شريط أسود اللون مائل ومنحنٍ إلى اليسار ... ثلاثة وجوه تعرض ابتسامة لطيفة لمن اقترب منهم، تأملتهم بعينيها النصف مغمضتين، و أخذت تراقب نظراتهم الشاردة في الفراغ، كان لعينيها لمعان مختلف لدى رؤية تلك

الصورة كل صباح، طبعت عليها قبلة وضممتها إلى صدرها وأغمضت عينيها مستحضرة طيف تلك الوجوه الذي يراودها في كل الأوقات، أما في الصباح فالأمر مختلف، حيث تعد تلك القبلة البداية الرسمية ليومها، ويكون ذلك فآل خير لها، شيعت يداها نظراتهم معيدة إياهم إلى مثوالم الدائم على الرف الخشبي ...

كانت غرفتها هي أصغر غرف المنزل الأربع، تتألف من سرير صغير، ومنضدة للدراسة، وضع في أعلاها مجموعة كبيرة من الأوراق غير الدراسية، خصصتها لكتابة بعض الأشياء الهامة والخواطر والنصوص الأدبية، فهي تحب الكتابة منذ أن كانت طفلة صغيرة، وتحوي غرفتها على جدران مختلفة الألوان، تحمل إحداها ساعة مستديرة كبيرة الحجم، ولكنها لا تعمل، فلم يعد هناك حاجة لهذه الساعات كما كان في السابق، خاصة بعد اختراع الهواتف المحمولة، وفي صدر الغرفة توجد خزانة ملابس وخزانة أخرى مخصصة للكتب الدراسية، إلا أنها لم تكن تحتوي على أي من المقررات الدراسية، فقد ملأها بدواوين الشعر وبعض الروايات العالمية، بالإضافة إلى وجود كمية كبيرة من الورود الذابلة في كل مكان، فهي تحب الورد كثيراً، وتنتظر فصل الربيع طوال العام.

أزاحت الأغطية الثلاثة، بعد أن نجحت إحدى محاولاتها في النهوض، وكما هي عاداتها كل صباح يعقب أحداث ليلية مثيرة، أيقظت ماريا الصغيرة لتروي لها ذلك الحدث المرعب الذي شاهدته منذ قليل ...

كانت ماريا بيضاء البشرة، نقية الوجه، خضراء العينين، تنحدر من أعلى رأسها جديلتان، يميزها شرودها المثير وتعابير وجهها اللامبالية وهدوؤها المربك غالب الأحيان، أخذت نفساً عميقاً وتحديث لها بصوت منخفض.

_ أنصتي لي جيداً، سوف أروي لك ما شاهدته الليلة، لقد كاد أن يُقضى علي لو لم يسعني استيقاظي المفاجئ ..
تابعت حديثها:

_ إن ما شاهدته اليوم يفوق بكثير ما حدثتك عنه سابقاً من ثعابين وكلاب مسعورة ومجرمين.

بينما كانت تروي لطفلتها بإسهاب ما شاهدته، بدت ماريا منصتة بوقار لحديثها، وقد ازداد لمعان عينيها وأخذت تنظر إلى تسارع أنفاسها وهي تتحدث بصوت يعاني من آثار الاستيقاظ المبكر.

_ عندما لمست قدمي الماء شعرت بأن موتي محقق، لقد كان صوتي قوياً بما يكفي لاختراق عالم الأحلام، وتمزيق هدوء هذه الغرفة.

ازداد شرودها وهي تراقب نظراتها، وقد استبد بها شعور متناقض، حاولت جاهدة إظهار تعاطفها، لتأكد لها بأنها متأثرة جداً لحالتها، ولا بأس في ذرف بعض الدموع إن أمكن، ولكن تعابير وجهها الثابتة، وغير القابلة للتعديل حالت دون ذلك.

صدر صوت ثلاث طرقات على باب الغرفة، كانت كفيلة بإنهاء ذلك الحديث، أعادت ماريا إلى سريرها الصغير وبدأت تعد نفسها لصباح يوم العطلة التي تنتظره طوال الأسبوع.

_ صباح الخير يا أبي.

انضمت إلى والدها الذي كان يجلس في أكبر غرف المنزل، والتي كانت تستقبل جلساتهم، ففيها المدفأة والبلازما الحديثة، وأثاث باهظ الثمن، قام والدها بجلبه من خارج البلاد، وكان يقرأ إحدى الصحف المحلية.

_ صباح الخير يا نوار، ما سر كل هذا الجمال الذي يتزايد كل صباح
!؟

قبلت رأس والدها وجلست إلى جواره متوردة الوجنتين، وقد شعرت ببعض الارتباك بعد أن ألقى عليها تلك الكلمات ..

كان والدها " يوسف " في العقد السادس من العمر، ذا وجه حاد الملامح، يتوسطه شارب كث يوشي بذكورة طاغية، وقد غزا الشيب شعر رأسه ولحيته الخفيفة، يعمل في تجارة المواد الغذائية، ويدير عدة محلات تجارية في وسط البلد، ويعد من كبار تجار المدينة، يمتلك شخصية شرسة لا تحب الثروة الكثيرة، وتفضل الجدية غالب الأحيان، يخشاها جميع من يعرفه من أصدقاء و تجار وعاملين، ولكن تلك الشخصية تتلاشى عندما تكون إلى جواره " نوار " كما يحب أن يسميها، ويحل مكانها شخصية مرحة تحب المداعبات و الضحك، والكثير من الكلام ...

كانت البلازما تعرض برنامجاً إخبارياً يتناول أحداث البلاد الأخيرة وآخر مستجداتها، رجلان يلبسان ثياباً أنيقة ويحاولان جاهدين انتقاء كلمات منمقة للرد على بعضهم البعض، وأخذت العصبية والانفعال تسيطر على الحديث، حتى اضطرت المذيع في النهاية الى إنهاء اللقاء، أخفض يوسف الصوت إلى أدنى درجة عندما أعلنت رائحة القهوة قدوم زوجته "أمينة"، والتي كانت تحمل إلى جانب القهوة صحن تقديم مقسماً إلى عدة أقسام، يمينه مليء بالتمر ويساره مليء بالكليجة، وفي وسطه مجموعة من قطع البسكويت، ابتسمت عندما شاهدتها تجلس إلى يمين والدها.

_ نور، أنت تجلسين في مكاني مجدداً؟؟

ضحكت نور وأمسكت بكوب الشاي المخصص لها، فهي لا تشاركهم شرب القهوة، وتحاول دائماً إقناعهم بأن الشاي هو مشروب الصباح الأول، ولكنها دائماً ما تفشل في ذلك ..

كانت الغرفة تعج بمختلف الروائح ... رائحة القهوة المختلطة برائحة دخان السجائر، بالإضافة الى رائحة العطر الخاص بحلاقة الدقن، وروائح أخرى قادمة من جهة المطبخ، استمعوا لها وهي تحدثهم عن الحياة الجامعية، وعن الاختلاف الكبير بينها وبين حياة المدرسة، كان والدها ينصت لها باهتمام وهو ينفث كمية كبيرة من دخان سيجارته، فيما كانت والدتها تمسك بجهاز التحكم الخاص بشاشة البلازما وتقلب بين المحطات التلفزيونية بحثاً عن سيدة الصباح " فيروز "

_ صوت فيروز ...

هو هدية استثنائية تمنحها لنفسك كل صباح، ودقائق سلام لا بد منها قبل الدخول في معترك الحياة والعمل والدراسة.

وجدت أخيراً إحدى المحطات الخاصة بالإعلانات والدعاية، تبث أغاني فيروز، مع صورة لها وهي تقف على المسرح وقد ثبت ميكروفون أمامها، ويقف خلفها ثلاث رجال وسيدة يرددون وراءها كلمات الأغنية.

وبعد أن فرغت أكواب القهوة والشاي دعتهم والدتها إلى تناول وجبة الفطور المعدة مسبقاً، كانت وجبتهم لهذا الصباح هي " الفورة " وهي الوجبة الصباحية الأولى في دير الزور، ولا سيما في أيام الشتاء الباردة، فهي من الوجبات الساخنة، وهذا ما يفسر امتناع والدها عن تناول حبات التمر السبعة وقطعة الكليجة كما يفعل كل صباح، ليدخر جميع إمكانيات معدته لهذه الوجبة، أما نور فقد اكتفت بعد تناول كمية قليلة منها.

أمسكت هاتفها المحمول وأخذت تقلب بين الصور التي احتفظت بها، ظهرت أمامها مجموعة كبيرة من الصور والذكريات التي لا حصر لها، صورة تجمعها بصديقتها ريماً وأسماء أمام مبنى كلية الحقوق في آخر يوم من أيام امتحان الفصل الأول، وأخرى التقطها لها والدها عندما كانوا في دمشق منذ ستة أشهر، في ساحة المسجد الأموي بعد أن أفرغ تحت قدميها ثلاثة أكياس من طعام الطيور، وقد أحاطت بها كمية كبيرة منها وأخذت تتعارك فيما بينها

للحصول على البذور الصغيرة، كانت تراقب نفسها وهي تفتح ذراعيها وتضحك بشدة، ستحتفظ بهذه الصورة ولن تفرط فيها أبداً...

_ من سيرافقني إلى السوق؟

تساءل والدها وهو ينظر إليها، أغلقت الهاتف المحمول وأجابت بعفوية:

_ بالطبع أنا وأمي.

صرحت والدتها وهي تحمل ما تبقى من وجبة الفطور وتتجه إلى المطبخ.

_ لن أستطع مرافقتكم، لدي عمل كثير علي الانتهاء منه ..

كانت أمينة، على عكس غالبية نساء المدينة، من النوع الذي لا تفضل الذهاب إلى السوق كثيراً، تمضي جل وقتها في إعداد الطعام واستقبال الزوار من نساء الحارة، وزيارة المنازل المجاورة، وفي أوقات الفراغ ترتدي ملابس الصلاة وتحمل سبّحتها وتنزوي في فناء المنزل بعيداً عن الضجيج، وببساطة شديدة، تلغي فكرة الذهاب إلى السوق أو إلى أي مكان آخر إن تعارضت مع إحدى أعمالها الكثيرة في المنزل.

جلست إلى جوار والدها في السيارة وأغلقت الباب بسرعة هرباً من لسعات البرد القارسة، وضعت ماريا في حضنها كي لا تشعر ببرودة الجو وتصاب بالزكام، واضطرت إلى مسح النافذة البلورية بأكماتها

عدة مرات بعد أن قام والدها بتشغيل جهاز التدفئة، حتى يتسنى لها مراقبة شوارع المدينة بوضوح.

سارت بهم المركبة من منزلها الكائن في حي القصور، وأخذت تتنقل في شوارع المدينة، لم يكن هنالك ما يثير الفضول، كل شيء على ما يرام، رجلان يقومان بتجميع أرغفة الخبز بعد أن قاما بتنشيفها جيداً على إحدى السيارات الكبيرة، و طفل يحمل صينية مليئة بالقطايف ويجول بين التجمعات، وبائع خضار وفواكه يقوم بتصفيف بضاعته في صناديق على رصيف المحل، وإلى جوار دكانه تجمع عدد من الأشخاص أمام أحد المطاعم المشهورة بتقديم الفول والحمص.

لم يدم الأمر طويلاً حتى وصولهم، فالمنزل لا يبعد كثيراً عن منطقة سوق الخضار، شعرت بلسعة من البرد مرت على وجهها عندما قام والدها بفتح باب السيارة، أخفت ماريا داخل حقيبتها ولحقت به...

كان سوق الخضار في دير الزور أشبه بساحة حرب بين الباعة، ضجيج وفوضى تملأ المكان، والأرض مليئة بالماء والخضار الفاسدة، وأطفال يقودون عربات حديدية ذات عجلة واحدة بمهارة بين الجموع ويعرضون عليهم حمل ما ابتاعوه وتوصيلها إلى منازلهم، بالإضافة إلى صرخات الباعة التي تسمع من خارج السوق، وهم يقومون برش خضارهم بالماء.

سارت خلف والدها وأخذت تساعد في انتقاء الخضار وحملها، وبعد أن انتهوا من شراء الخضار اتجهوا نحو محلات بيع السمك، والتي لم تكن أحسن حالاً من سوق الخضار .. ضجيج وأصوات مرتفعة، وصناديق بلاستيكية مليئة بالأسماك الفراتية الصغيرة والمتوسطة، أما الأسماك الكبيرة فقد وضعت على شكل مجموعات هنا وهناك، وبعضها وضع في حوض كبير مليء بالماء. فضلت نور الوقوف بعيداً عن الأسماك، ففي وقت مضى، طلبت من والدها الاقتراب من سمكة كبيرة ولمسها بيدها، وعندما لمستها انتفضت السمكة وضربت ذيلها على الأرض وقفزت إلى الأعلى ، حينها انخلع قلبها من المفاجأة، وأطلقت صرخة جعلت جميع من في المكان ينظر إليها، ومنذ ذلك الحين لم تعد تجرؤ على الاقتراب منها، حتى وإن تظاهرت بالموت كما تفعل غالبية الأسماك ...

عادوا إلى المنزل محملين بأكياس سوداء ممتلئة بالخضار والأسماك، بعد أن أمضوا ساعتين خارج المنزل، وضعت ماريا في سريرها وانضمت إلى والدتها التي كانت منهمكة في إعداد الغداء، فيما كان والدها يتعطر ليلتحق بالمسجد القريب من منزله، فلم يتبقَّ الكثير من الوقت على موعد صلاة الجمعة، ولم تنجح محاولاتها هي ووالدتها في ثنيه عن الذهاب إلى المسجد، فالذهاب إلى صلاة الجمعة في هذه الأيام أصبح يشكل خطورة كبيرة

٢

المكتبة الشعبية

تقع المكتبة الشعبية في شارع التكايا وسط المدينة، وتعدّ إحدى أهم المكتبات في المدينة، وأقدمها، والفضل بذلك يعود إلى مالكتها " جميل " والذي يسعى جاهداً الى اقتناء أكبر كمية ممكنة من الكتب والروايات، تلبية لرغبات زبائنه ..

_ تذكر جيداً، رواية جريمة في قطار الشرق تُسلم للسيد أمين، وهي مدفوعة الثمن، ورواية البؤساء خاصة بالآنسة أميرة، غير مدفوعة الثمن، هل هذا واضح ؟؟ لن أتأخر كثيراً في العودة .. إلى اللقاء.

هذه آخر الكلمات التي ألقاها عليه والده قبل أن يغادر المكتبة لزيارة أحد أصدقائه، بعد أن اتفق معه بالأمر على تقييم مكتبته المنزلية وشرائها منه.

وجد ضياء نفسه وحيداً في المكتبة، محاطاً بجدران ممتلئة بالمجلدات والكتب والروايات على اختلافها، روايات رومنسية وأخرى بوليسية ودواوين شعرية وقصص تاريخية وكتب متنوعة، ورغم أن العمل في هكذا مكان أصبح عبئاً كبيراً على مالكه، فالزبائن محدودين، والمردود ضئيل، إلى أن جميل يجد في هذه المكتبة

مملكته الخاصة التي ورثها عن والده، وسيورتها لأحفاده ليحفظوا هذا الإرث العظيم، وكان يمضي أغلب وقته في قراءة الكتب والتلذذ بالشاي والسجائر ..

وعلى عكس والده تماماً، كان ضياء يجد في قراءة الكتب مضيفة للوقت لا أكثر، فالحياة تغيرت، ولا يمكن أن نختزلها بقراءة مجموعة أوراق مُجمعة، و يردد دائماً بعيداً عن أسماع والده وزبائنه:

_ الكتب لا تصلح لهذا الزمن.

لذلك فقد قرر دراسة الاقتصاد والابتعاد تماماً عن رغبة والده في دراسة اللغة العربية عله يجد اسم ضياء على أحد المجلدات في مكتبته يوماً من الأيام.

كان الوقت يمر ثقيلًا عندما يضطر للبقاء وحيداً في المكتبة، أما الآن فهو يحتاج الى البقاء وحيداً لبعض الوقت، وكان يفكر في أمر الفتاة التي رآها في كافتيريا الجامعة.

عينان زرقاوان متلاثلتان كما نجوم السماء، ووجه يحمل ملامح فراتية زادتة فتنة وجاذبية، وابتسامة ساحرة يراها كلما أغمض عينيه، ويضفي عليها حجابها الأبيض عذوبة ورقة خاصة لتبدو وكأنها تتربع على عرش الجمال.

_ الفراتية هي الأجل على الإطلاق.

أما عن خرافة معايير الجمال، والإحصائيات التي تجري في العالم من حين إلى آخر فهي لا تشمل الفراتيات بطبيعة الحال.

أما عن السبب في ذلك فقد قيل بأن نهر الفرات هو أحد أنهار الجنة الأربعة، وهذه ليست اسطورة، بل هي حقيقة أكدتها الديانات السماوية، وبالتالي فإن الفراتية هي حورية نبتت على ضفة نهر من أنهار الجنة.

وذلك ما يفسر جمال فتيات دير الزور وجاذبيتهم، ففي الزمن القديم، أشار الرحالة إلى ذلك في كتبهم، فقد وصفهن " كاسبارو بالبي " في رحلته الشهيرة من البندقية إلى الهند بأنهن " بارعات الحسن، والأكثر جمالاً من أي موضع آخر " وأشار " ليونهارت " في كتابه بأنهن حسنو الصورة، وحديثاً، لاتزال الفتاة الفراتية تحافظ على تميزها وجاذبيتها الخاصة، والتي تميزها عن غيرها من الفتيات.

كانت الفتاة تجلس دائماً إلى جانب صديقتها في كافيتريا الجامعة، لم يمتلك الجرأة بعد على الاقتراب منها والتحدث إليها، رغم أنه لا يجد صعوبة في التحدث إلى غيرها من الفتيات داخل الجامعة وخارجها، يكتفي بالنظر إليها ومراقبتها من بعيد، في الأسبوع الفائت كانت الفتاة تقف بعيداً عن صديقتها، حينها شعر بأنها فرصته ويتوجب عليه أن يتحلى بالشجاعة أمامها ولو لبضع ثوان حتى يتم الأمر، وعندما أصبحت المسافة بينهما لا تتجاوز بضع

خطوات أحست الفتاة باقترابه فالتفتت إلى الخلف، ولكنه سرعان ما غير طريقه بعيداً عنها ...

شيء ما في عينيها يجعله لا يجيد التصرف أمامها، ويطيح بكل الأفكار والخطط التي يمضي وقتاً كبيراً في إعدادها، وما أن يشرع في تنفيذ تلك الأفكار حتى يجد نفسه عاجزاً عن ذلك ..

قرر الاستعانة مؤخراً بالكتب التي تحيط به بحثاً عن حل لتلك المعضلة، قرأ في أول كتاب اختارته يداه.

_ عزيزي الرجل، كن شجاعاً، وبادر بالحديث إليها، فالأنثى لا تبادر في ذلك، ولو كلفها الأمر خسارة جميع رجال الأرض.

أكدت له تلك الكلمات بأن لا جدوى من الاستعانة بنصائح الكتاب، وبأنه سلك طريقاً خاطئاً.

_ مرحباً، هل أجد لديكم رواية الحب في زمن الكوليرا.

نهض من على كرسيه بعد أن أعادته هذه الكلمات الى المكتبة من جديد، كانت تقف أمامه شابة في العقد الثالث من عمرها، ترتدي معطفاً طويلاً وتلف رأسها بحجاب رمادي.

_ نعم، لحظة واحدة.

أجابها وهو يصعد الى السلم الصغير، هذه المرة لن يعاني طويلاً في البحث بين أكوام الكتب المكدسة، فعنوان الرواية كان غريباً بعض

الشيء، ولفت انتباهه منذ زمن طويل، غلف الرواية جيداً وناولها إياها.

_ تفضلي آنستي.

عبرت الفتاة عن سعادتها بالحصول على الرواية بابتسامة عريضة، وتحدثت:

_ لقد بحثت عنها في كل مكان، ولكني لم أجدها، ممتنة لك وللسيد جميل.

حيته بيدها وانصرفت تحمل بين يديها الرواية، ولم تنتظر حتى وصولها الى المنزل، بل فتحت الرواية وأخذت تقلب صفحاتها بعد أن دلفت الى الخارج..

_ الحب في زمن الكوليرا.

قالها ضياء محاولاً تقليد الفتاة وقد غير نبرة صوته إلى صوت عجوز طاعنة في السن، وعلى إثرها انتابته نوبة ضحك كبيرة ...

مضى الكثير من الوقت، ولم يعد والده كما أخبره، بل تأخر كثيراً، ربما كان يتابع إتمام شراء إحدى المجموعات الروائية في مكان آخر، وكما كان متفقاً، لم يغلق المكتبة ويذهب إلى صلاة الجمعة، بل أخرج كرسيه وجلس في الخارج، وأخذ يراقب حركة السيارات، ممسكاً بهاتفه المحمول وأصبعه على زر الاتصال، لم يكن هنالك

ما يدعو للقلق في المنطقة، على عكس الجمعة السابقة، حيث كانت المنطقة تشهد حركة كبيرة لسيارات رباعية الدفع، وهي تتنقل بشكل هستيري بين الأحياء القريبة من شارع التكايا، حينها كانت المدينة على موعد مع أعمال عنف كبيرة، ذهب ضحيتها أربعة شبان في مقتبل العمر، سمع صوت إطلاق النار من مكان بعيد، أخذ يتلقى اتصالات أصدقائه ليخبروه بأن الاحتجاجات والمظاهرات بدأت تشتعل في كل مكان، وهناك أنباء تتحدث عن سقوط عدة جرحى ...

وفي تمام الساعة الثامنة مساءً أغلق باب المكتبة، بعد أن أتمّ المهمتين اللتين أوكلتا اليه على أكمل وجه، وكأنه أغلق أبواب جهنم التي كان مضطراً إلى المكوث داخلها حتى هذا الوقت، غادر المكتبة متجهاً نحو منزل صديقه باسل القريب من المكتبة، ليلتحق في الجلسة التي بدأت منذ ساعة من الآن ...

٣

أتفق علماء أهل الأرض على أن سرعة الضوء هي السرعة المطلقة في هذا الكون الواسع، ولكن شيئاً ما من الممكن أن ينافس الضوء في سرعته إنها أيام العطلة.

استلقت على سيرها بعد انتهاء ثاني أيام العطلة، كان يوم أمس شاقاً مليئاً بالمتاعب التي أصبحت ترافق كل يوم جمعة مؤخراً.

الجميع ينتظر يوم الجمعة طوال الأسبوع، وهو أول أيام العطلة الرسمية، ويعد مناسبة لتبادل الزيارات بين الأقارب والأصدقاء، إضافة إلى التجمع الكبير في المسجد لأداء فريضة الجمعة، ولكن مؤخراً، ومع تفجر الثورة السورية، أصبح يوم الجمعة مرتبطاً باندلاع احتجاجات واسعة تشمل كافة أحياء المدينة، حيث يخرج غالبية سكان دير الزور، كما الحال في باقي المدن السورية، وهم يرددون شعارات تطالب بالحرية والعدالة ورفع الظلم، وهذا ما جعل قدوم يوم الجمعة يشكل حدثاً مهماً في البلاد، ويفضل بعضهم تسميته بأسماء مختلفة "جمعة الغضب، جمعة التحدي، جمعة الصمود... إلخ"

كان شريط أحداث أمس ماثلاً أمامها منذ عودة والدها من المسجد..

جموع غاضبة، ولافئات ترفع

ومطاردات في الحارات والشوارع

أصوات رصاص وصراخ، ودماء تسيل

والجميع متسمر أمام الشاشات التلفزيونية يراقب الأخبار العاجلة التي تأتي تباعاً، أما المذيع الإخباري فقد كان يستقبل اتصالاً ويودع آخر، ولا يمنح المتصلين سوى دقيقة واحدة، وقد يضطر لمقاطعة المتحدث في بعض الأحيان عند ورود خبر هام، فهناك الكثيرون يودون المشاركة وهم محملون بالأخبار العاجلة، وقد قسمت الشاشة الى أربعة أجزاء حتى تتمكن من نقل أكبر كم من أخبار المظاهرات، وفي الأسفل، كان هناك شريط يمر من يسار الشاشة نحو اليمين، حاملاً معه كم كبير من الأخبار العاجلة.

لونه أحمر، أحمر قائم.. مليء بالدماء.

تذكرت نور ذلك الغريب الذي وجد نفسه فجأة أمام باب منزلهم، وكان يفر من سيارة رباعية الدفع، صندوقها الخلفي يضم عدة رجال يحملون هراوات وبنادق حربية، وكانت السيارة تسير بسرعة جنونية، لم يتردد ذلك الشاب لثانية واحدة في القفز إلى داخل البناء الذي يضم منزلها، ولحسن حظه، فقد انشغلت السيارة بمطاردة أربعة شبان ظهروا في نهاية الشارع، وكانت تراقب المشهد من خلال نافذة المطبخ، ضغط على جرس المنزل عدة مرات، وما

إن فتح له والدها الباب حتى اندفع إلى الداخل غير مكترث بأي شيء من حوله.

كان الغريب شاب أبيض البشرة، تميزه شامة كبيرة أسفل عينه اليسرى، ويجد صعوبة في نطق حرف الراء، وكان يرتدي بيجامة رياضية زرقاء ويخفي معظم وجهه بقبعة صوفية كبيرة الحجم، تتوسطها فتحتين من الأعلى في مكان العينين، وقد انتشرت هذه القبعات في تلك الفترة من أجل التخفي عن كاميرات التصوير.

وقفت خلف الباب وأخذت تنظر إليه، لاحظت تغير لون وجهه وشحوبه، بالإضافة إلى معاناته في التقاط أنفاسه، وكانت يداه ترتجفان رغم محاولاته المستمرة في إخفاء ذلك، وبدا ذلك ظاهراً للجميع عندما حمل كأس الماء وأفرغه في جوفه.

أجرى الشاب عدة اتصالات سريعة مع رفاقه للاطمئنان على سلامتهم، وبدأ يستعيد أنفاسه، أما والدها فقد استغل فترة تواجد ذلك الشاب ليجري معه بعض الأحاديث حول الأحداث الأخيرة، وتعمد التحدث بلهجة يظهر من خلالها رفضه لما يقوم به ذلك الشاب ورفاقه.

_ إن الأزمة الأخيرة أوقفت الحياة في البلاد، وكان لها نتائج سلبية على الجميع، بالإضافة إلى التخريب الذي أصاب الممتلكات العامة.

لم يعقب الشاب على حديثه إلا بجملة واحدة.

_ إنها ثورة وليست أزمة.

أجاب يوسف:

_ ثورة، حراك شعبي، أزمة، حرب ... سمها ما شئت، النتيجة واحدة، بلد متعطّل، ولا أحد يعلم ما ستؤول إليه الأمور فيما بعد.

أنصت له الشاب حتى فرغ من كلامه، وكأنه يعد إجابات مناسبة لكل موضوع أثاره والدها، وعندما تحدث أظهر ثقافة عالية، ولاقى ردوده استحسان الجميع، تبين لاحقاً بأنه خريج كلية التجارة من جامعة دمشق، تحدث الشاب:

_ ما الذي يجعل شاباً في مقتبل العمر يتقدم صفوف المحتجين، غير مبال بالمخاطر الكبيرة التي ستترتب على ذلك، وهو يعلم جيداً بأن احتمال موته وارد في أي لحظة.

لم يجد والدها أي إجابة ليرد على كلمات الشاب الأخيرة، بل كان التأثر ظاهراً على قسماً وجهه، تابع الشاب حديثه:

_ نريد أن نعيش أحراراً

ونحلم بوطن يتسع لأحلامنا

يكافئ مبدعيه، ويعاقب مجرميه

ويساوي بين جميع أبنائه،

ما المشكلة في ذلك؟

أعاد الشاب جسده إلى الوراء بعد أن زال انفعاله، أخذ نفساً عميقاً وهو ينظر إلى والدها بعينين مطفأتين.

_ استشهد اثنان من رفاقي في بداية الثورة، واعتقل أربعة آخرون، كانوا زملائي في الجامعة وسبقوني في التخرج لتفوقهم، لم يكونوا مُخربين، ولم يخرجوا لأن أحدهم قد دفع لهم مبالغ مالية كما يتحدثون عنهم في هذه القنوات.

وأشار إلى البلازما، وقد كانت تعرض أحد البرامج الإخبارية.

_ إنهم كاذبون ... يصورون لنا مساحات الوطن الخضراء ويتعمدون إخفاء ذبول زهوره وعباسها، يرتدون أفضل الملابس ويتصدرون القنوات الإخبارية ليحدثونا عن أحلام وردية ومستقبل زاهر.

أين ذلك الوطن الذي يحدثونا عنه في الشاشات؟؟

قاطعته والدها:

_ ولكن ما الحل، هل الحل في إراقة المزيد من الدماء؟ البلد يسير نحو المجهول يا بُني.

ضحك الشاب على نحو مفاجئ وهو ينظر إلى والدها.

_ حسناً، وهل هذا السؤال يوجهه إلى الجلاد أم إلى الضحية؟ لماذا يقتلوننا؟ هل يصح قتل شخص لأنه يُطالب بحقوقه؟

ثم فتح كفه ووجهها نحو والدها.

_ هذه اليد لم تحمل سلاح في يوم من الأيام، ولم تعد سوى على حمل القلم، وحديثاً أصبحت تحمل لافتة، لقد سئمنا هذا الهراء، ولم يعد بإمكاننا السكوت عن الظلم الذي نتعرض له، سوف ننتزع حقوقنا منهم ولن نتراجع عن مطالبنا..

بدا التأثير واضحاً على المستمعين من كلمات الشاب ونبرته الحادة، اعتذر منهم على انفعاله المبالغ فيه على حدّ وصفه، وعندما عادت الأمور إلى طبيعتها في الخارج توجه بالشكر لهم على استقبالهم له وإنقاذه من الخطر الذي كان يحيط به، ووعدهم بزيارة ثانية خلال الأيام القادمة، ولكن بظروف أفضل، ثم غادر المنزل..

أصبح لديها الجرأة مؤخراً على النوم وحيدة في غرفتها، ولكن تحت أغطيتها الثلاثة وبرفقة ماريّا، وكانت سابقاً تلجأ إلى غرفة والديها خوفاً من صوت إطلاق الرصاص، والذي انتشر مع بداية الثورة في آذار/ مارس ٢٠١١، ثم حدثت بعض اضطرابات عنيفة في منتصف آب / أغسطس من العام ذاته، أغلقت الشوارع، وعمت

الفوضى في كل مكان، حينها اضطرت مع عائلتها إلى المغادرة والتوجه إلى دمشق، ثم عاد الهدوء، أو القليل منه إلى أحياء المدينة، وبقيت الأمور كذلك حتى منتصف كانون الثاني / يناير من هذا العام، حيث أصبحت تجري اشتباكات في مختلف مناطق المدينة خلال المساء، بين الحين والآخر، وبدأ أن المدينة في الأيام القادمة ستشهد حرباً في كل مساء ..

وضعت ورقة بيضاء على المنضدة الخشبية، وكتبت.

_ كم هو مؤلم أن تُصاب بداء العجز، وأن لا تملك الشجاعة على الكلام وسط أناس يصرخون بكل شجاعة، ويسرون نحو أقدارهم بخطى ثابتة، وبعزيمة لا تلين، كم يحتاج أحدهم لقوة وعزيمة حتى يصرخ بأعلى صوته؟ وأن يصطدم بجدران الخوف بكل صلابة ويحطمها واحد تلو الآخر مع كل صرخة.

وضعت مادة لاصقة أسفل الورقة، ووضعت فوقها وردة حمراء ذابلة، ثم طوتها وأدخلتها في الدرج المخصص لكتابتها، ثم حملت ماريا واتجهت بها نحو سريرها، استلقت إلى جانب اللوحة الكريستالية، وأخذت تروي لماريا قصة الأرنب المسكين والثعلب الماكر، مستغلة حالة الهدوء التي تعيشها المدينة، أما ماريا فقد كانت تشعر بنعاس شديد، وتحاول إخفاء ذلك عنها كي لا تتسبب لها بأي إحراج، وتبدي اهتماماً بأحداث القصة ومجرباتها، وتحاول إظهار تعاطفها من الأرنب المسكين، وانزعاجها من مكر الثعلب

وجسارته، وفجأة توقفت نور عن الكلام، فقد باغتها النوم على حين غرة، التحقت بها ماريا بعد ثوانٍ معدودة الى عالم الظلام، دون أن تعرف ما الذي جرى لذلك الأرنب المسكين ..

_ تسير بها سيارة في مكان مجهول، هدوء مخيف وترقب لا يعكره إلا صوت أنات والتواءات تصدر من تلك السيارة المتهالكة، يجلس شاب ذو وجه مدور على يمينها وينظر الى الأمام دون أن يلتفت إليها، والى يسارها شاب آخر يغط في نوم عميق، وقد أسند رأسه على بلور السيارة المغلق، تبادر إلى ذهنها عدة تساؤلات.

من هؤلاء؟؟

أين نحن؟؟

ما الذي يحدث؟؟

لاحظت وجود رجل يجلس في المقعد الأمامي إلى جوار السائق، مدت رأسها الى الأمام لتحاول رؤية ذلك الرجل، وكما لو أنه قرأ افكارها، التفت إليها بهدوء وأخذ ينظر الى عينيها، كان رجل طاعن في السن، بعينين تحاصرهما التجاعيد، وفي أعلاها حاجبان متصلان، ولحية بيضاء، كثة، أضفت عليه هالة من الوقار، وكانت قسما ت وجهه تبعث على الارتياح.

أفزعتها التفاتته المفاجئة، وبلا شعور، تعلقت يديها بيد الشاب الجالس إلى يمينها، ولكنه لم يبد أي ردة فعل، وعندما نظرت إلى يدها وهي تمسك بيده سارعت إلى سحبها.

كانت نور تراقب نظرات ذلك الرجل الحزينة، استطاع إظهار ابتسامة لطيفة من بين غابة التجاعيد التي تملأ وجهه، شعرت ببعض الارتياح وهي تبادل ذلك الرجل ابتسامته، أعاد نظره إلى الأمام وإلى سرعه المركبة الجنونية.

كانت السيارة تسلك طريقاً غير مألوفاً ولم يسبق لها رؤيته، صحراء قاحلة، وطريق متعرج خال من أي إشارات ولوحات مرورية تدل على وجهتهم، ومع مرور الوقت بدأت تشتم رائحة احتراق أسلاك كهربائية وإطارات مشتعلة، بالإضافة إلى رائحة البارود المميزة، نظرت في عمق الصحراء، وأخذت تلتفت في كل الاتجاهات.

_ لا دخان ولا حرائق، إذاً من أين تأتي هذه الرائحة.

ازدادت سرعه السيارة بشكل مفاجئ، وأخذ العجوز يتوسل إلى السائق أن يخفف من سرعة المركبة وأن يغير وجهته، ولكن السائق لم يعره أي اهتمام، بل يزيد في سرعته أكثر وهو يغط في نوبة ضحك هستيرية.

لاح لها من الأفق أعمدة دخانية مختلفة الألوان ترتفع نحو الأعلى، ازداد شحوبها وتسارعت ضربات قلبها وهي ترى السيارة تقترب من موقع النيران، صرخت بأعلى صوتها.

_ الى أين يذهب بنا هذا الرجل.

لم تلقَ صرخاتها أي استجابة، ازداد ارتباكها وبدأت تنظر يمين ويسرى تبحث عن شيء يفسر لها ما يحدث، وعندما التفتت نحو بلور السيارة الخلفي صعقها المشهد....

مئات الشبان يسرون خلف السيارة ويتبعون طريقها، بعضهم يستقلون سيارة مشابهة لسيارتهم، وبعضهم الآخر يهرول على قدميه، فيما كان عدد كبير منهم متعلقين بسلاسل حديدية، وجميع السلاسل معلقة بحلقة كبيرة تجرها السيارة التي تستقلها...

أرادت أن تصرخ ثانية ولكنها لم تتمكن من ذلك، أمسك العجوز بمقود السيارة بقوة وحاول تغيير مسارها، نتج عن ذلك اضطراب في حركة السيارة وبات وقوعها وشيكاً، وفي خضم المعركة التي نشبت بين ذلك الرجل والسائق على المقود حدث شيء غريب، تدخل الشاب الذي يجلس الى يمينها لمصلحة السائق، أمسك بيدي الرجل وأبعدها عن المقود، وأحاط به من الخلف مقيداً حركته تماماً، صرخ الرجل بأعلى صوته.

_ أوقفوه، سيذهب بنا إلى الجحيم، أين عقولكم؟

لم يستجب الشاب، بل كان ينظر الى السائق ويتسمم، وكلما اقتربت السيارة من النيران ازدادت كثافتها، وازداد معها نحيب الرجل وتعالى ضحكات السائق، أشرفت المركبة على جرف شديد الانحدار، وتأكد للجميع بأنهم هلكى لا محالة.

قفزت بهم السيارة في الهواء وسقطت بسرعه جنونيه من أعلى المنحدر إلى حفرة مشتعلة بالنيران، أفلت الشاب ذلك الرجل وأخذ يتوسل اليه لكي يقود المركب وينقذهم، ولكنه لم يستجب لتوسلاته، بل كان يجلس بخشوع وينظر إليهم متحسراً، أمسك الشاب بالسائق الذي تسبب بهلاكهم وشده من تلايبه بقوة إلى الخلف، وعلى إثر ذلك، تمكنت نور من رؤية وجه السائق المتهور، وهنا كاد أن يغمى عليها من هول الصدمة.

كان وجهه قطعة من الجلد السميك، يضم حجرة عين واحدة، ولكنها فارغة تماماً، لم تتمكن من إبداء أي ردة فعل، فقد سطع نور كثيف تلاه ظلام مطبق عقب ارتطام السيارة بالأرض ...

استيقظت من نومها وهي لا تزال تشعر بسقوط المركبة من الأعلى، وبالنيران التي اشتعلت من حولها لتتحرق كل شيء، أمسكت بكوب الماء وأخذت تشرب منه وكأنها تاهت في صحراء قاحلة لثلاثة أيام وقد شارفت على الموت عطشاً، وبعد أن زال عنها تأثير

ذلك الكابوس، سحبت نفساً عميقاً ونفثته بقوة في محاولة منها لإخراج الهواء المشبع برائحة الحرائق، وإدخال كمية كبيرة من الهواء النقي إلى رئتيها.

_ كابوس آخر، كابوس آخر.

رددت ذلك وهي تحتضن ماريا وتلتقط انفاسها.

٤

_ هيا يا ضياء، لقد تأخر الوقت كثيراً.

استيقظ ضياء على صوت والدته وهي ترفع عنه الأغطية، وكعادته طلب منها بضع دقائق نوم إضافية، ولكنها رفضت ذلك وأشارت له نحو ساعة الهاتف.

_ انظر الى الساعة، لقد فات الوقت.

كانت عقارب الساعة تشير الى السابعة وخمس دقائق، نهض مسرعاً وأخذ يللمم قطع ثيابه المتناثرة ويرتديها بسرعة، اختار قميص أبيض تتخلله خطوط سوداء وحمراء، وبنطال من الجينز الأزرق، وما إن غادرت والدته الغرفة بعد أن اطمأنت إلى استيقاظه حتى سارع الى إخفاء كومة الأوراق الممزقة، والتي أمضى ليلته محاولاً كتابة شيء ما لفتاة الجامعة، تحسباً لعدم قدرته على الحديث إليها بشكل مباشر، قام بكتابة الكثير من تلك الرسائل، وعندما ينتهي منها يقوم بتمزيقها لشعوره بأنها غير مناسبة، وهكذا حتى باغته النوم..

فتح باب خزانته وأخرج منها علبة عطر، كان باب الخزانة الخلفي يحتوي على الكثير من الأشياء، صورة للعلم الإيطالي، وصور أخرى التقطت بأوقات مختلفة للاعبين يرتدون قمصان زرقاء، وبعضها التقطت منذ زمن بعيد قبل تلوين الصور، يجمع بينها شعار

واحد.. " نادي الفتوة الرياضي " وهو النادي الأكثر شعبية في المدينة.

عندما تقرر زيارة دير الزور، فإنك ستسمع ذلك الاسم يتردد في كل مكان، وستراه مكتوباً على كثير من جدران المدينة، سيحدثك كبار السن عن ذكرياتهم التي عاشوها مع ذلك الاسم، أما عن الشباب فهم متفرغون لحضور مباريات الفريق وتدريباته، ومتابعة أخباره عن طريق الصحف الرياضية، وستستمع إلى أحاديث أطفال المدينة عن حلمهم في تمثيل الفريق عندما يصبح أحدهم شاباً، ويتنافسون فيما بينهم للحصول على أسماء بعض لاعبي الفريق أثناء مبارياتهم في شوارع المدينة ومدارسها.

_ ضياء.. ضياء.

أفرغ الكثير من ذلك العطر على قمصيه، وقبل أن يغادر المنزل، أوقفته شقيقته الصغيرة "ندى"، التفت نحوها.

_ هل ستأتي لي بالدمية التي وعدتني بها.

قالت ذلك ببراءة جعلته ينحني ويطلع قبلة بين عينيها.

_ نعم، ستجدينها هنا عند عودتي.

وأشار لها بإصبعه نحو السلة المليئة بالدمى والألعاب، استقبلت تلك الكلمات بسعادة لا مثيل لها وعادت نحو غرفتها، وصوت ضحكتها يملأ المكان ...

على الطرف الآخر كانت نور في طريقها إلى موقف الحافلات، الطقس بارد، والشوارع مليئة ببرك المياه وأوراق الأشجار المتحللة التي خلفتها ليلة ماطرة.

_ قد يكون هطول الأمطار نعمة كبيرة في أماكن كثيرة، أما في دير الزور، فإن تساقط الأمطار مرتبط بتشكيل أنهار وبحيرات داخل الأزقة والحارات، وينتج عن ذلك ثياب وأحذية متسخة بعد مغادرة المنزل بعدة دقائق، أما الجانب الإيجابي في الأمر، فهو الجلوس على شرفة المنزل والحصول على كأس شاي والاستمتاع بمشاهدة تساقط الأمطار من بعيد ...

أجبرتها إحدى البرك المتوسطة على الوقوف قليلاً والتفكير في تغيير وجهتها إلى الشارع الآخر، نظرت نظرة خاطفة إلى ساعتها وأخذت قرارها بالقفز من فوق البركة لضيق الوقت، ونجحت في ذلك بعد أن تبللت أطراف البنطال السفلى ببعض المياه المشبعة بالطين.

_ صباح دير الزور ...

شوارع مليئة بالحياة، ورائحة خبز التنور تنبعث من الأفران وبعض المنازل، أطفال يسيرون على شكل مجموعات وهم يتجهون نحو مدارسهم محدثين أصواتاً مرتفعة وخصومات لا تنتهي، وباعة يجرون عرباتهم المتهالكة ويركنونها بالقرب من أماكن التجمعات، يحيط بهم عدد كبير من الأطفال ليبتاخوا

أطعمتهم الصباحية المختلفة، ودراجات نارية يقودها شبان
متهورون يقومون باستعراضات بهلوانية أمام الفتيات المتجهات
إلى مدارسهم وجامعاتهم..

باغتها صوت مُتعب.

_ جميلتي هنا.

اقترب منها العم عبد الرحمن مبتسماً.

_ صباح الخير يا عم.

ردت على ابتسامته بابتسامة لطيفة وهي تلقي عليه تحية الصباح.

كان العم عبد الرحمن رجل سبعيني، نحيل الجسد، وجهه ممتلئ
بالتجاعيد التي تروي قصص كثيرة عاشها الرجل، وهو بقال الحي،
وقد اعتادت نور منذ صغرها على أخذ قطعة سكاكر صباحية
مجانية من الرجل، ولكن مؤخراً بعد أن علم بحصولها على مقعد
في كلية الحقوق، أخبرها بأن مخصصاتها اليومية من السكاكر
ارتفعت إلى قطعتين، قطعة عند ذهابها صباحاً وأخرى عند عودتها
ظهراً.

وكعادته عند كل صباح استفسر منها عن أخبار الجامعة، وكان
يعاني من سعال شديد، وعندما سألته عن ذلك ابتسم وقال لها.

_ العمر له حقه يا ابنتي.

تابعت مسيرها بعد أن لوحت له بيدها وهي تمضغ قطعة السكاكر.

اقتربت من موقف الحافلات، وشاهدت ريما من بعيد وهي تضع يديها على خصرها وتنظر نحوها، في مشهد يشير إلى أن عاصفة ستحدث بعد لحظات، وعند اقترابها منها أخرجت ريما هاتفها المحمول مشيرة لها إلى الساعة الإلكترونية.

_ انظري هنا.

_ صباح الخير يا ريما.

حاولت نور احتواء غضب صديقتها بتلك الكلمات

_ لن نستطع الالتحاق بالمحاضرة الثانية يا آنسة.

قالت لها ريما ذلك وهي غاضبة، أشارت لها نور عبر حركة من يدها تدل على لامبالاة، ثم تحدثت نور.

_ لن نستطع الالتحاق بالمحاضرة الثانية يا آنسة.

ووسط زوبعة الغضب التي كانت تظهرها ريما، ضحكت كثيراً عندما شاهدت نور وهي تكرر كلامها مقلدة بذلك تعابير وجهها الغاضبة.

كانت ريما فريدة من نوعها، تتمتع بجمال استثنائي، بشرة بيضاء صافية وعينان واسعتان خضراوان ، وقوام متناسق وابتسامة رقيقة، تخفي وراء ذلك الجمال شخصية قوية، اکتوى بنيرانها

جميع الشبان الذين حاولوا ملاطفتها داخل الجامعة وخارجها، وكانت تعيب على نور وفتيات جيلها حالة الضعف التي يحيطون أنفسهم بها، ولذلك اختارت دراسة الحقوق، وهي تنتظر تخرجها بفارغ الصبر لتختص بعدها بالمحاماة، وتتمكن بذلك من ممارسة هوايتها في خوض المعارك دفاعاً عن النساء المضطهدات بصفة قانونية .

صعدتا إلى الحافلة بعد معركة صغيرة مع جموع الطلبة المتواجدين بكثرة داخل موقف الحافلات، وتوج انتصار ريمما بهذه المعركة في ضمان وصولهما إلى الجامعة وهما جالستان على مقاعد الحافلة، دون الحاجة إلى الوقوف في منتصفها تحت رحمة مكابحها العنيفة، كانت الحافلة قديمة متهالكة، يصدر منها أصوات غريبة من كل مكان، مقاعدها من الحديد الملبس بإسفنج أخضر، وقد مزقت طبقتين من القماش على وجه المقعد، ولم يتبقّ منهما إلا بعض الخيوط، وعلى ظهر المقعد المقابل لهما كتبت ذكريات بخط رديء وبعض الرسوم التي لا معنى لها، وفي أعلى الحافلة علقت بعض عناقيد العنب البلاستيكية وصور للجسر المعلق وبعض الفنانين، وكان السائق يستمع الى أغنية عراقية حزينة لا تناسب أجواء الصباح، وهذا ليس مستغرباً، ففي دير الزور تلقى الأغاني العراقية رواجاً واسعاً ..

سارت بهم الحافلة بهدوء، وأخذت تتوقف بين الحين والآخر لحمل الركاب وإنزالهم، وبشكل مفاجئ، ضغط السائق على الفرامل

بشدة محدثاً فوضى عارمة، وعلى إثرها كاد أن يسقط عدد من الشبان لولا الاكتظاظ داخل الحافلة، شاهدت نور سيارة عسكرية تقطع الشارع و تقف في منتصف الطريق، تاركة المجال لمرور مركبة واحدة، يقف إلى جوارها مجموعة من الرجال، يرتدون ملابس عسكرية، ويحملون أسلحة وأجهزة اتصال لاسلكية، صعد إلى المركبة رجل عريض الصدر، أصلع، يرتدي نظارة سوداء تخفي نصف وجهه.

_ الجميع يخرج البطاقات الشخصية .

كان صوته ناعماً ولا يدل على مظهره الخارجي المهيب، سار الرجل بين الركاب وهو يراقب البطاقات الشخصية وينظر الى وجوه أصحابها ليطابق بين الصورتين.

_ موظفو دائرة النفوس يُجيدون اختيار أسوأ لحظة يمكن أن تعيشها طوال حياتك، ليلتقطوا لك فيها صورة ويضعونها على بطاقتك الشخصية، لتكمل حياتك لاحقاً وأنت تحاول التعايش من فكرة تواجد صورة ذلك الكائن الغريب إلى جانب اسمك، غير معنيين بالآثار النفسية السلبية التي تتعرض لها كلما أعدت النظر إلى تلك الصورة أثناء استخدامها في المعاملات الحكومية .

لم يكن الرجل يهتم لذلك، بل كان يقوم بعمله على أكمل وجه، ويعيد البطاقة إلى صاحبها مع ابتسامة جافة، وعند انتهائه من

جميع البطاقات وتأكدته من أن كل شيء على ما يرام، يطرق على حديد المركبة طرقتين قويتين في إشارة للسائق بمتابعة طريقه .

" انتشرت مؤخراً حواجز التفتيش في شوارع المدينة، تسببت هذه الحواجز بمشاكل عديدة للطلاب والموظفين الحكوميين، وعلى رأسها تأخرهم في الالتحاق بالدوائر الحكومية والجامعات والمدارس، بالإضافة الى ظهور طوابير السيارات في المدينة "

تابعت الحافلة مسيرها وأخذت نور تراقب الثقوب التي أحدثها إطلاق النار على واجهات المنازل والأرصفة وبعض السيارات المركونة، كانت المنطقة التي تمر بها الحافلة قد شهدت إحدى الاحتجاجات في الأيام القليلة الماضية.

_ كلية الحقوق ، كلية الحقوق.

أعادها صوت السائق المرتفع إلى داخل الحافلة بعد أن غادرتها بتخيلاتها وخواطرها المزعجة، وعند نزولها من الحافلة التفتت إلى السائق وأخذت تنظر إليه لتتأكد من أن وجهه متكامل وله عينين غير فارغتين ...

٥

كانت أسماء تتحدث إلى أحمد في كافتيريا الجامعة، وهو زميلها في كلية الحقوق، وما إن شاهد الأخير نور وريما وهما يجتازان باب الكافتيريا إلى الداخل حتى استأذنها بالمغادرة.

_ صباح الخير.

قالا لها ذلك سوياً، وهما ينظران بشهية إلى أكواب الشاي والبخار يتصاعد منها، وقد وضعت على الطاولة بانتظارهما.

أسماء، هي صديقتهم الثالثة، وقد تعرفت عليها نور بعد أيام قليلة من بداية الفصل الدراسي الأول، وسرعان ما نشأت بينها وبين الفتاتين علاقة قوية، وهي فتاة جميلة، قصيرة القامة بالمقارنة مع طول صديقتيها، جلست الفتيات الثلاثة ورفعت ريما ثلاثة أصابع للطفل الذي يحمل صندوق البسكويت ويتجول بين الطاولات.

كانت الكافتيريا تعج بالطلاب، وهم يتجمعون حول الطاولات ويتناقشون في كرة القدم و الألبسة و أجهزة الموبايل الحديثة، وعدد آخر يلجأ الى إحدى زاوية الكافتيريا بعيداً عن الضوضاء، وبدأ أنهم يسعون جاهدين إلى الحديث بصوت منخفض، أما عن المحاضرات والمقررات فهذه المواضيع غير متداولة الآن، خاصة

وأن امتحانات الفصل الأول لم يمضِ عليها سوى شهر من الزمن، ومن غير المستحسن الحديث بهكذا أمور قبل اقتراب امتحانات الفصل الثاني، تتصاعد أبخرة الشاي والقهوة من وسط الدوائر البشرية، بالإضافة إلى دخان السجائر والعطور على اختلاف أصنافها، لتشكل مزيجاً مميزاً متداخل الروائح.

نهضت أسماء لتجلب لنفسها كوباً آخر من القهوة الساخنة، فهي لا تكتفي بكوب واحد، ولدى عودتها تحدثت ربما.

_ الشاي هو مشروب الصباح الأول، أليس كذلك يا نور؟

هزت نور رأسها إلى الأسفل مؤكدة كلامها.

أخذت أسماء تحتسي القهوة وتنظر إليهم، تغمض عينيها مظهرة استمتاعها بمذاق القهوة اللذيذة، فتحت نور مقرر العقوبات و عدلت من جلستها، وتحدثت بصوت هادئ.

_ تقول الأسطورة بأن أحد الملوك في الزمن القديم أجبر رعيته على احتساء القهوة عقوبة لهم على عصيانهم الأوامر و تأخرهم عن دفع الضرائب، ولمضاعفة العقوبة، قرر الملك إضافة المياه الساخنة لها واختار لهم ساعة في الصباح الباكر لشربها، استاء الجميع بادئ الأمر وفكروا في مغادرة المملكة إلى غير عودة، خاصة وأن مذاقها مر ولونها أسود كثيب، وتجنباً للهجرة الجماعية التي بدأ الحديث عنها في أرجاء المملكة، قام وزير الملك الأول بنشر

إعلان مفاده بأن القهوة تساعد على إنقاص الوزن وزيادة النشاط وتخفيف الاكتئاب، واقترح عليهم تناول قطعة من الحلوى معها، وشرب كأس من الماء البارد عقب الانتهاء منها لإزالة مرارتها ...

ومع مرور الأيام، اعتاد الجميع على شربها، وأصبحت عادة صباحية يقوم بها غالبية أبناء المملكة، تطورت الأمور لاحقاً ونشأ جيل جديد ورث هذه العادة السيئة عن سبقتهم، وأصبح لها محبين وعشاق يحدثون الناس عن مذاقها المميز، أما بعض المتطرفين منهم، فقد أخذوا يقارنون بينها وبين الشاي.

وفي المحصلة ... لا يوجد سر غامض في القهوة كما يدعون، ولا تساعد على الاسترخاء، كل ما في الأمر أنها عقوبة في الزمن القديم، يدعي البعض الآن بأنها مشروب لذيذ ومميز..

حظيت كلماتها بتصفيق ريمما وترحيبها، أما أسماء فقد كانت تنظر إليهما وهي تتابع احتساء القهوة وتبتسم غير مهتمة لتلك الكلمات، وعندما فرغ الكوب تحدثت لهما:

_ كفو عن الثرثرة، سوف تبدأ محاضرة اللغة الإنكليزية بعد خمسة دقائق، يتوجب علينا الالتحاق بالقاعة الآن، هيا بنا.

نهض الثلاثة وتوجهن نحو القاعة الرابعة.

كان مبنى كلية الحقوق يتألف من مبنيين منفصلين، يضم البناء الأول الكافتيريا ومكتب عميد الكلية ومكتب شؤون الطلاب وبعض المكاتب الإدارية، أما المبنى الثاني فإنه يضم عدة قاعات دراسية، دخل الثلاثة إلى القاعة الرابعة حيث ستبدأ المحاضرة بعد ثوانٍ معدودة.

كانت القاعة شبه فارغة إلا من بعض الطلبة، اختاروا مقعداً متأخراً في الجانب الأيسر تحت النافذة الحديدية الضخمة، وما إن دخلت الدكتورة فردوس حتى باشرت بإلقاء المحاضرة، لم يكن هنالك تفاعل كبير من قبل الطلبة، اقتصر الأمر على ثلاثة طلاب كانوا يناقشونها حول دقة إجاباتهم، أما البقية فقد كانوا يتبادلون النظرات التي تدل على شعورهم بالملل والضجر من المحاضرة، فالمادة مقبولة وطريقة إعطاء الدكتورة تدعو للملل، ولكن حضورهم شر لابد منه كما أخبرتهم ريمًا.

_ أي أسئلة أخرى؟؟

أجابها الطلاب بالنفي، توجهت لهم الدكتورة فردوس بالشكر على حسن استماعهم للمحاضرة وغادرت القاعة.

كانت الدكتورة مسالمة على غير عاداتها، ولم تستفز الطلبة كما تفعل دائماً، غادر الجميع خلفها كمن خرج من سجن قضى فيه عقدين من الزمن، متجهين نحو الكافتيريا مجدداً.

_ ما رأيكم في مغادرة الجامعة؟

اقترحت عليهم نور.

_ ولكن تبقى لنا محاضرة العقوبات.

أجابت أسماء.

هزت ريما برأسها معبرة عن اللامبالاة.

_ نأخذ ملخصها من مكتبة الجامعة، دعونا نخرج من هذا المكان

المقزز، تقبلوا دعوتي على الغداء.

سارعت أسماء ونور الى الموافقة واتجه الثلاثة نحو الخارج ...

انزلتهم المركبة في ساحة " الحركة " وسط المدينة، وكان اختيار الوجبة قد حسم بعد جدال طويل داخل الحافلة، واتفق الثلاثة على أن البييتزا مع المشروبات الغازية هي الخيار الأفضل لهذا اليوم...

كانت ساحة " الحركة " تتوسط المدينة، تحيط بها الحديقة المركزية ومستشفى النور وشركة الكهرباء، وتتفرع منها عدة طرق رئيسية تربط أطراف المدينة الأربعة، عبر الثلاثة الساحة متجهين إلى منطقة الأسواق، حيث محلات الألبسة والعطورات والمطاعم، كانت هذه المنطقة مزدحمة طوال ساعات اليوم،

تتعالى فيها صرخات السائقين وأبواق سياراتهم، والأغاني الشعبية التي تبثها المكبرات العملاقة الموضوععة على واجهة المحلات التجارية، اختار الثلاثة أحد مطاعم البيزا الكبيرة، وجلسوا يتناولون فيها وجبتهم، وعندما انتهوا منها أشارت نور للنادل لإحضار ثلاث زيادي من الآيس كريم، ثم تابعوا مسيرهم وهم يتنقلون بين واجهات محلات الألبسة، حيث الحقائب المميزة، والملابس غريبة الشكل، وبين محلات المكياج والعطورات، وعند وصولهم إلى شارع " ستة إلابع " كانت تقف أمامهم فتاة حسناء تحمل ميكروفون، وإلى جانبها رجل يضع على كتفه كاميرا ويوجهها نحوها، أشارت لهم نور.

_ انظروا إلى هناك، إنه التلفزيون الرسمي.

كانت الفتاة تتنقل بين جموع المارة وتحاول التحدث اليهم، ولكن محاولاتها فشلت في إقناع أي منهم في الوقوف أمام الكاميرا، بل كان الجميع ينظر إليها بتقزز وشزر، ولولا وجود رجال الأمن بالقرب من المكان لحدث مالا يحمد عقباه، حاولت الفتاة الدخول إلى المحلات التجارية والتحدث إلى أصحابها ولكنهم رفضوا ذلك بشدة، بل ورفضوا دخولها إلى محلاتهم أساساً، بحجة أن لديهم عمل كثير ولا وقت لديهم للحديث الفارغ، أما الباعة المتجولون القريبون من المكان فقد رفعوا أصواتهم بشكل مبالغ فيه، في

محاولة منهم للتشويش على عمل الفتاة، سارعت الفتيات الثلاثة إلى مغادرة المكان بعد أن وجهت الكاميرا نحوهم ...

دخلت نور وصديقتها إلى إحدى المكتبات القريبة من شارع ستة إلا ربع، تسأل عن كتاب " عينك قدري " للكاتب السورية عادة السمان، أكد لها صاحب المكتبة وجود الكتاب، ولكن طلب منها الانتظار قليلاً، وذهب إلى الداخل للبحث عنه بين أكوام الكتب المكدسة، وانشغل الثلاثة بالتنقل بين عناوين الكتب الجديدة، وقراءة الإهداءات، في تلك الأثناء دخل شاب إلى المكتبة، يحمل دُمية ومجموعة من المقررات الدراسية، ووقف أمام أحد الرفوف وأخذ يبحث في داخلها، لم تحتاج نور لكثير من الوقت للتعرف على ذلك الشاب، دائماً ما تلاحقها نظراته في الجامعة، ولكن لم تُعيره أي اهتمام، كما غيره، ها هو ينظر إليها مجدداً، يبدو عليه الارتباك، هذا ما لاحظته، ومن حسن حظه أن ريماً منشغلة الآن بتدوين إهداء إحدى الروايات على مقررها، أخرج الشاب قصاصة ورقية وألقى بها على الأرض، ثم غادر إلى الخارج بعد أن تيقن من أن الفتاة قد شاهدته وهو يُلقي القصاصة، ولكن نور لم تلتفت لذلك، وقابلته ببرود مُبالغ فيه، ثم جاء صوت من الداخل.

_ ها هو، كتاب " عينك قدري "

ثم صوت خطواته الرجل يقترب من الداخل، ناولها الكتاب بعد أن غلفه، شكرته وغادر الثلاثة خارج المكتبة..

مضت ساعة ونصف على جولتهم في منطقة الأسواق، اشترت ريمًا شال رمادي اللون، مُطرز بخيوط سوداء متقاطعة، واشترت أسماءً عطر ومجموعة من أقلام التلوين، وأتفق الثلاثة على العودة إلى المنزل، وقفوا في أحد الساحات ينتظرون مرور الحافلة، كانت مجموعات الطلاب قد بدأت بالظهور بعد أن انتهى الدوام المدرسي، وكان هنالك شاب يحمل بيده دلة نحاسية كبيرة الحجم، وفي اليد الأخرى يحمل فنجانين يصدر منهما صوت موسيقى متناغمة عبر ضربهما ببعضهما، وكان المكان يعج بالمارة والسيارات، وقفت سيارة كبيرة الحجم على رصيف الشارع المقابل لهم، ثم خرجت منها امرأة ترتدي ملابس قصيرة، وقد لفت ذلك الأنظار إليها، أعادت وضع المفتاح في باب السيارة الجانبي لتحكم إغلاقه، وعلى حين غرة، اقترب منها ثلاثة شبان بصورة مريبة، أخرج أحدهم من داخل معطفه جهازاً صغير الحجم، وضرب به على كتف المرأة، أصدر الجهاز صوت رنين مزعج، تبين لاحقاً أنه جهاز صعق كهربائي، حاولت المرأة الصراخ والإفلات من قبضتهم، ولكن مفعول ذلك الجهاز، والخوف الشديد الذي أصابها، كان كفيلاً بضمان عدم سماع صوتها على مسافة نصف متر منها، أمسك بها الشاب الآخر من رأسها ودفع به إلى نافذة سيارتها البلورية بقوة كبيرة، مما أدى إلى تحطم البلور وفقدان المرأة لتوازنها، وبدأ جسدها يترنح ويميل نحو الأرض.

أشار الثالث، وبدا أنه قائد المجموعة، إلى الشاب الذي يحمل جهاز الصعق الكهربائي بحركة سريعة، أخرج الأخير مسدساً فضي اللون ووجهه نحو المرأة التي لم تعد قدماها قادرة على حملها، صرخ به بصوت مرعب جعل كل من في الشارع يرتجف خوفاً.

_ أطلق النار.

تلكاً الشاب قليلاً وهو يوجه مسدسه الى صدر المرأة، صرخ به ثانية.

_ هيا، أطلق النار.

أطلق الشاب رصاصة استقرت في صدر المرأة، ونفر الدم من صدرها نحوه وكأنه يحاول الانتقام لها عبر تلطيخ قميص القتال، لم يمهلها أكثر من ثانيتين ليطلق رصاصة ثانية مزقت كتفها الأيسر، وسقطت على الأرض مضرجة بدمائها، ابتعد الشبان الثلاثة عن المكان وهم يطلقون النار في الهواء حتى لا يلحق بهم أحد ...

تجمد جميع من في المكان من هول الحدث، ولم يستطع أحد من المارة الاقتراب من جثة المرأة خوفاً من عودة الرجال الثلاثة، غادر أناس كثيرون ذلك المكان متجهين نحو الحديقة المجاورة، أما الفتيات الثلاث، فقد كن مختبئات رفقة مجموعة كبيرة من المارة خلف كبينة خاصة بأحد البنوك، وقد تعالت أصواتهن بالبكاء

والصراخ خوفاً من مشهد الدماء وصوت الرصاص، أمسكت ريما بيدي نور المرتجفتين.

_ اهدئي يا نور، لقد غادروا.

قالت لها ذلك وهي تمسح دموعها، أما أسماء فقد كانت تجلس على الأرض، تغطي وجهها بكفيها، غير مصدقة لما شاهدته للتو، وخلال لحظات، ظهرت سيارة تاكسي صفراء تقطع الجموع وتتجه نحو الفتيات الثلاثة، وقبل أن تشير لها ريما، توقفت السيارة على مقربة منهن، نزل منها السائق وقام بمساعدتهن على النهوض وركوب السيارة، لم يطل الأمر سوى دقيقة واحدة، حتى كان الجميع داخل السيارة، أخذ السائق ينظر هنا وهناك لمعرفة ما يجري، وكان قد وصل إلى المكان لتوه، تجمع الناس حول جثة المرأة التي بدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكان جسدها ينتفض بقوة وكأنه أصيب بصعقات كهربائية، صرخت ريما بوجه السائق.

_ تحرك من هنا بسرعة.

_ حسناً، حسناً.

انطلقت السيارة بسرعة وغادرت ساحة الجريمة، وكان سائق السيارة يحمل تفاحة خضراء ويأكل منها، وكان مشهد الجثة والدماء من حولها لم يحرك فيه أي إحساس، أخذ ينظر من خلال المرآة المعلقة فوق رأسه إلى الفتيات الثلاث.

_ ما الذي حدث؟ من هي تلك المرأة؟

_ نحن لا نعلم شيئاً، ولا يهمنا من تكون تلك المرأة.

أجابته ريما بفضاضة، تنبه إلى نظرات عينيها الحادة التي تكاد تخترق رأسه، أزاح عينيه عنها وتابع مسيره، أوصلوا أسماء إلى منزلها، لم تكن تبكي، وكأنها تقنع نفسها بأن ما جرى كان خواطر مزعجة، وبأنها لم تذهب إلى السوق أصلاً، ثم تابعت السيارة طريقها نحو منزل نور..

٦

_ حسناً حسناً، ما رأيك في روايات الكاتبة الإنجليزية أجاثا كريستي، إنها من أروع كتّاب الرواية البوليسية على الإطلاق، اقترح عليك رواية "مقتل روجر اكرويد"، متأكد بأنها ستنال إعجابك.

كان جميل يتحدث إلى رجل يبحث عن روايات بوليسية ذات أحداث مثيرة، وهو يفكر في تأخر عودة ضياء من الجامعة، وعدم إجابته على اتصالاته الثلاثة، شدد الرجل على وجود عنصر الإثارة والغموض في أحداث الرواية، أكد له جميل ذلك وأخبره بأن نهاية الرواية تحمل مفاجأة صاعقة، وأخذ يجري اتصالاً رابعاً مع ضياء، زم الرجل شفتيه.

_ مقتل روجر اكرويد، عنوان مثير، كم ثمنها؟؟

وقبل أن يجيبه، تعالت الأصوات من خارج المكتبة، سارع جميل وذلك الرجل إلى قطع حديثهما والتوجه رفقة جميع الزبائن إلى الخارج للتحقق من مصدر الأصوات، في الطرف المقابل للمكتبة الشعبية، كانت تقف سيارة بيضاء كبيرة الحجم، كتب عليها حرفين بالخط الأزرق العريض " UN "، كانت السيارة تتجول في شوارع المدينة الرئيسية، وما إن دخلت السيارة إلى شارع التكايا حتى أوقفها مجموعة من أهالي المنطقة، وأخذوا يتحدثون إلى من

في داخلها، في بادئ الأمر، رفضوا الخروج من السيارة، واكتفوا بإنزال إحدى نوافذها الزجاجية والحديث إلى الأهالي من خلفها، ولكن وتحت إصرارهم الشديد، خرجوا من السيارة، وكانوا أربعة رجال يرتدون ستر برتقالية اللون ويضعون على رؤوسهم قبعات بيضاء عليها شعار موحد.

"جامعة الدول العربية"

تجمع حولهم عدد كبير من المارة، وبدأ الناس يتوافدون ويلتفون حول السيارة، ونتيجة لتجمهر الناس المفاجئ من حولهم، انفصلوا عن بعضهم البعض وأصبح كل واحد منهم يقف في زاوية من زوايا الشارع.

اقتربت امرأة كبيرة في السن من أحدهم بطريقة غريبة، كانت تزيح من أمامها بكلتا يديها، وعندما وصلت إليه، أخرجت صورة من حقيبتها، كانت الصورة لابنها المعتقل، طلبت منه مساعدتها في إعادته إليها في أسرع وقت ممكن، وآخر كان يحدثهم عن حياة ابنه الذي استشهد منذ ثلاثة أسابيع، و الدموع تملأ وجهه، فيما سارع أحد الشبان إلى نزع قميصه حتى يتمكنوا من رؤية آثار التعذيب التي بقيت على جسده عندما تم اعتقاله منذ مدة، ولكنه سارع إلى ارتداء ملابسه والهروب من المكان بعد أن وجه له أحدهم كاميرته ليوثق المشهد، ودخل الجميع معهم في نقاش مطول حول أحداث العنف التي يتعرضون لها، شكك أحد المراقبين فيما يتحدث عنه

الأهالي من حوله، وكان يتكلم بلهجة جزائرية يصعب فهمها عليهم، ومن وسط الجموع، خرج رجل وأشار له نحو الأعلى حيث منزله، وقد تعرض شباك شرفته لثلاث رصاصات ما أدى لتحطم زجاج النافذة وإصابة ابنته الصغيرة بيدها أثناء تفريق إحدى المظاهرات الشعبية قبل مدة من الزمن..

وصادف تواجد المراقبين العرب في المنطقة، مع تشييع أحد الشهداء الذين ارتقوا في احتجاجات أمس، وعلى الرغم من خطورة تواجد هكذا أعداد من المحتجين في وسط المدينة، وفي هكذا توقيت، إلى أن العدد كان يتزايد ويكثر، أغلق جميل مكتبته وسارع إلى مغادرة المكان بعد أن انضم زبائنه إلى جموع المحتجين، كان سيناريو العاشر من يناير / كانون الثاني المنصرم ماثل أمامه، عندما فُجعت المدينة باستشهاد ستة عشر شاباً من أبنائها أثناء تجمعهم للحديث إلى المراقبين العرب في المنطقة الممتدة من الساحة العامة حتى مستشفى النور، فيما عُرف لاحقاً " بمجزرة المراقبين العرب "، حينها، أعلن الحداد في دير الزور، وأرتدى الجميع السواد، وأصبح الاقتراب من أصحاب السُتر البرتقالية محفوفاً بالمخاطر، ويُحسب لذلك ألف حساب ..

تعالت الهتافات، ورُفعت صورة كبيرة للشهيد إلى جوار النعش، ولافتات أخرى تحمل طابع التحدي والإصرار على مواصلة طريق الثورة، وقبل التوجه إلى المقبرة، قام رفاق الشهيد بفتح دائرة كبيرة

وسط الجموع المحتشدة، وأخذوا يطوفون بالنعش حولها وهم يهتفون باسم الشهيد، وكان الرجال الأربعة مشغولين بتصوير كل ما يجري أمامهم، بدا عليهم التأثر الشديد من هول القصص التي استمعوا إليها، ووعدهم بإيصال الحقيقة كما هي إلى المعنيين بالأمر.

وما أن غادر النعش المكان حتى تبعه المشيعون، وسارعت السيارة البيضاء إلى مغادرة المنطقة

٧

الفترة التي تسبق انطلاقة الحرب هي أشد من الحرب نفسها على من يكتوون بنيرانها، فهم يراقبون بلادهم وهي تئن بصمت مطبق، ويشاهدون شوارعها وأزقتها وهي تستبدل طابعها الاعتيادي بآخر إجرامي، وتتحول التجمعات حول محلات الألبسة والعطورات إلى التجمعات حول الجثث والدماء، وتستبدل الحفلات والأفراح بجلسات التعزية والمآتم، ويصح أن نُطلق على هذه المرحلة بمرحلة "اللاحرب واللاسلم" يسيطر فيها الخوف والتوتر، وانتظار ما هو أسوأ، وتتبدل فيها النفوس والمفاهيم، وتعلو صيحات الانتقام والثأر..

وضع ضياء دمية صغيرة على سلة الألعاب واتجه نحو غرفته دون إحداث أي ضجة، ولم يقم بالمرور إلى المطبخ وسؤال والدته عن وجبة اليوم كما يفعل عادة، بل ألقى بجسده على السرير بقوة، وبقي هكذا عدة دقائق بلا حراك، ثم توارى خلف غطاء السرير وأخذ يستمع إلى ضربات قلبه المتسارعة، وصوت أنفاسه غير المنتظم، لم يكن ذلك المشهد جديداً، ولم يكن خائفاً، فقد اعتاد على رؤية الدماء والجثث في التلفاز وفي الشوارع مؤخراً، أما عن السبب الذي أدى به إلى هذه الحالة، فهو الطريقة التي قتلت فيها تلك المرأة،

لقد قُتلت بدم بارد، في وضوح النهار، وأمام مرأى عدد كبير من النساء والأطفال..

أغمض عينيه عندما تذكر مشهد الدماء وهو ينفر بقوة من صدر المرأة، ومشهدا الأخير وهي مضرجة بدماؤها، بدأت تظهر على جبينه بعض قطرات العرق رغم برودة الطقس، رافق ذلك شعور عام بالغثيان.

فكر في أمر تلك المرأة مُجددًا.

_ لماذا حاولوا اختطافها في البداية؟ هل الأمر مُجرد عملية اختطاف كتلك التي نستمتع إليها بين الحين والآخر؟ أم أنها تصفية حسابات؟

والأهم من كل ذلك.

كيف يمكن لإنسان أن يقتل آخر بهذه الطريقة؟ وهل يصح أن يُقال عنه "إنسان"؟

توقف عن التفكير بذلك بعد أن شعر بصداع شديد، وأغمض عينيه علّه يخلد إلى النوم، وبالتالي يتوقف عن رؤية ذاك المشهد المأساوي ولو لبضعة دقائق.

تلك الفتاة، فتاة الجامعة، والتي لم يتمكن حتى الآن من معرفة اسمها، هي من أوصلته إلى مسرح الجريمة، حيث كان يتتبعها منذ

أن غادرت الجامعة على نحو غريب رفقة صديقتها، ظل قريباً منها طوال الوقت دون أن يلفت الأنظار، وقد أثار اهتمامه دخولها إلى إحدى المكتبات وشراء كتاب منها، وفكر في أن ذلك قد يكون له أثر إيجابي في قادم الأيام، التحق بها إلى داخل المكتبة، ووقف بالقرب منها عدة لحظات، وشعر برغبة عارمة في الحديث إليها، بادلته بعض النظرات الجافة، تلك التي يفهم منها الرفض وعدم الرغبة في الكلام، حينها لجأ إلى الخطة البديلة، وهي إلقاء قصاصة ورقية دون عليها بعض الكلمات ورقم هاتفه، وعلق آماله بتلك القصاصة، ولكن خطته لم تنجح، شاهد الفتاة وهي تخرج من المكتبة دون أن تقترب من القصاصة الورقية.

حينها، ترك الفتاة وهي تبتعد، لم تعد لديه الرغبة في ملاحقتها مجدداً، وبدأ يفكر جدياً في الالتحاق بمكتبة والده، وتأجيل أمر الفتاة إلى وقت لاحق، وبعد لحظات من التفكير، التحق بالفتاة..

وعندما حدثت الجريمة، كانت الفتاة في حالة يرثى لها، حالها حال جميع من قادهم سوء حظهم إلى ذلك المكان، وفي هذا الوقت تحديداً، حاولت إحدى صديقاتها تهدئتها ولكن دون جدوى، حينها أحس بضرورة مساعدتها بأية طريقة، فكر في الاقتراب منها ومساعدة صديقتها على تهدئتها بشكل مباشر، ولكنه شعر بأن تلك الفكرة قد تبدو غير مناسبة، وعندما شاهد سيارة تاكسي صفراء تقطع الشارع المجاور سارع إلى اللحاق بها وإيقافها، أشار

لسائقها نحو الفتيات الثلاث وطلب منه التوجه نحوهن ومساعدتهن، نفذ السائق طلبه بعد أن أغراه بأجرة مضاعفة، وبسرعة، سار نحو الثلاثة دون الالتفات إلى الصيحات من حوله، والتي تطالبه بالتوقف وحمل أصحابها بعيداً عن هذا المكان، وما إن غادرت السيارة تلك المنطقة، حتى ابتعد ضياء عن موقع الجريمة تاركاً خلفه مجموعات من الفضوليين، وهم يتبادلون الأحاديث بشأن الجريمة التي حصلت للتو.

سمع صوت باب غرفته وهو يُفتح، وصوت خطوات هادئة تتجه نحوه، يرافقها صوت شيء يسحب على سجاد الغرفة، لم يكن يرغب في رفع غطاءه والتحقق من الأمر، ولا يعلم إن كان يملك القدرة على ذلك حقاً، بل كان يفضل البقاء داخل الظلام بين تلك المشاهد والأفكار المرعبة، ومواجهة كل ذلك وحيداً، لأنه سيتعرض لعدد هائل من الأسئلة والاستفسارات عن سبب اصفرار وجهه، وعن هيئته المخيفة، شعر بيدين صغيرتين تتحسسان موضع رأسه، وبشكل مفاجئ، رفع الغطاء من على وجهه وألقت ندى الصغيرة بنفسها عليه تقبله ببراءة وهي تضحك.

_ أنا أحبك كثيراً يا ضياء.

ابتسم لها بمرارة.

_ وأنا أحبك يا عزيزتي.

كانت تحمل دميتها الجديدة التي جلبها لها ضياء منذ قليل، وقامت بإخراج الدمى من سلة الألعاب، و أخذت تعرفهم على إيميلي، صديقتهم الجديدة، أما عن سبب تسميتها بإيميلي فيرجع ذلك إلى الشبه الكبير بين الدمى الجديدة وبين إيميلي الحقيقية دمية سالي، وهي بطلة أحد أفلام الكرتون المفضلة لديها.

ندى الصغيرة، ذات الخمسة أعوام، تحظى بأعلى رتبة منزلية قد يحصل عليها أي شخص، وهي "أصغر أفراد الأسرة".

تحسن ندى استغلال هذه الميزة أحسن استغلال، فهي محبوبة الجميع، أما ضياء، فقد كان يحبها حباً كبيراً، وينفذ لها جميع رغباتها الطفولية المتكررة، ونتيجة لذلك، كانت تخبره دون غيره عن جميع أسرارها، فقد أطلعته مؤخراً على بعض المعلومات السرية المتعلقة بعالم الدمى، وهو عالم يختلف كثيراً عن عالم البشر، مليء بالأسرار وبالخلافات التي لا نهاية لها.

أخبرته بأن الدمى ماكرة، وهي تتقن فن الهدوء لوقت طويل ولديها القدرة على إخفاء مشاعرها، وأعطته مثلاً على ذلك.

_ ساندي المبتسمة دائماً لا تحب بيلا وتحاول جاهدة إخراجها من سلة الألعاب، على الرغم من طبيعة بيلا الهادئة ورقتها، ومحاولاتها المتكررة في إصلاح العلاقة مع ساندي، إلى أن ذلك لم يشفع لها، بل زاد من غيرة ساندي وبغضها لها ...

٨

تلبدت السماء بكمية كبيرة من الغيوم، والتصق بعضها ببعض، أخذت بذلك مكان الطيور التي كانت تملأ السماء منذ قليل، وبعد دقائق قليلة، بدأت حفلة البكاء الجماعية فوق المدينة البائسة..

أيقظها صوت والدها قاطع عليها أحد أحلامها المرعبة، كانت قطرات العرق تتساقط من أعلى راسها، كتمثال شمع وضع في فرن كبير، هيئتها مخيفة، ووجهها محتقن، وجسدها يرتعش كما لو أنها أصيبت بنزلة برد قوية، ينحدر من عينيها خطان رسمهما مجرى الدمع الجاف مروراً بخديها وصولاً إلى شفتها العليا، وكأنها قد كبرت عشر سنوات خلال هذه الساعتين، أعادت اللوحة الكريستالية إلى الرف الخشبي عندما رأت والدها يجلس إلى جوارها وسارعت لاحتضانه، مسح قطرات العرق من على جبينها، وتحدث إليها محاولاً تهدئتها.

_ نوار، حبيبتي.

أجابت بصوت مضطرب.

_ أبي، لقد حدث ذلك أمام عيني، شاهدت دماءً، لقد رأيتها تموت.

قبّل بين عينيها، ومسح دموعها التي اختلطت بقطرات العرق.

كل شيء على ما يرام، اطمئني يا حبيبتي..

صدر صوت طرقات على مقبض باب المنزل الخارجي، وبعد عدة ثوان دخل الدكتور زياد إلى غرفتها يحمل حقيبة سوداء، ويرتدي نظارة صغيرة الحجم، وكانت نور تظن بأن هنالك ارتباطاً وثيقاً بين مهنة الطب وهذه النظارة الصغيرة، وتعتقد بأنها تُمنح لطلاب الطب كهدية في حفل تخرجهم.

وضع مظلته المبللة على الأرض وجلس إلى جوارها، تلمس جبينها للحظات، ثم رفع حاجبه الأيسر وأخرج من حقيبته الكبيرة سماعة طبية، ووضع القطعة المعدنية المدورة على صدرها وأخذ يستمع، فكرت في أن الأطباء يستعملون هذه الأداة لسماع ما لا يستطيع المريض البوح به حتى أصبحت حالته بهذه السوء، وبأن هناك عضو ما داخل الجسد، لا يمكن رؤيته، يتكفل بتلك المهمة، مرت عدة لحظات شعرت فيها نور بخوف شديد بعد أن لاح لها مشهد إطلاق النار والدماء حول الجثة، أغمضت عينيها ووضعت يدها على رأسها الذي يكاد ينفجر بهذا الكم الهائل من الخواطر المزعجة التي تروح وتجيء، كانت تستمع مؤخراً إلى العديد من القصص التي تتحدث عن أعمال عنف تجري من حين لآخر في المدينة، وقد أخبرها والدها منذ أسبوعين عن حالة مشابهة حصلت بالقرب من محله التجاري في وسط السوق، أما في الأيام الأخيرة فقد أخذت

هذه الظاهرة تنتشر بكثرة، ولكن ما حدث اليوم كان يختلف تماماً، بالنسبة لها على الأقل ...

هز الطبيب رأسه وأعاد السماعة الطبية إلى الحقيبة، ثم أخرج منها قلمًا رمادي اللون، وطلب منها أن تفتح عينها لأقصى درجة ممكنة، وتحاول ألا تغلقها حتى ينتهي من عمله، ورغم استغرابها الشديد إلا أنها نفذت ما أراد منها دون أي سؤال، وجه الطبيب القلم إلى عينيها، ثم صدر منه ضوء قوي جعلها تغلقها لثانية واحدة، عاودت فتحها مجدداً بعد أن زالت المفاجئة.

بدا أن الطبيب اطمأن إلى حالتها، وكان ذلك واضحاً من خلال تعابير وجهه الإيجابية بعد كل اختبار، وكآخر إجراء قبل الحكم النهائي على حالتها، وضع جهاز مقياس الحرارة في فمها، وأخذ يلملم حقيبته استعداداً للمغادرة، انتظر لدقيقة واحدة قبل أن ينزعه وينظر إليه.

_ اطمئني، لا شيء يدعو للقلق.

رافقت كلمات الطبيب ابتسامة مطمئنة تبعث على الارتياح، ناولها علبة دواء تحتوي على حبوب بيضاء مستديرة، وطلب منها أن تتناول حبتين منها في الحال، نهض مشيراً بعينه إلى والدها بأن يتبعه إلى باب المنزل..

_ أخبرني يا دكتور، ما الذي حدث لابنتي؟

زم الطبيب زياد شفتيه وأجاب على سؤال والدها بسؤال مضاد.
 _ أنت من يجب عليك الإجابة على هكذا سؤال، ما الذي حدث
 للفتاة؟

_ أخبرني صديقتها بأن جريمة قتل جرت على بعد بضع خطوات
 منها.

أطرق الطبيب لبضع لحظات وبدا عليه التأثير على حال الفتاة، ثم
 أجاب:

_ حسناً، إنها تعاني من صدمة نفسية جراء ذلك الحادث
 المؤسف، تحتاج إلى راحة وهدوء، ولبضعة أيام.

كان والدها يستمع إلى كلمات الطبيب بقلق.

_ دكتور، هل ستخرج ابنتي من هذه الحالة؟

ابتسم له الدكتور زياد ووضع يده على كتفه.

_ اطمئن، لقد كثرت مثل هذه الحالات مؤخراً نتيجة الظروف
 الصعبة التي تمر بها البلاد، وقد عاينت كثيراً منها، جميعها قد
 تعافت تماماً، وقد أعطيتها دواء سيساعدها على النوم، وهو ما
 تحتاجه الآن، أما هذه الوصفة فإنها تحتوي على بضعة مهدئات
 وفيتامينات سوف تحتاجها في الأيام القادمة.

قال ذلك وهو يخط بضع كلمات على ورقة صغيرة، ناولها لوالدها وهو يودعه على باب المنزل ...

أخرج يوسف سيجارة وأخذ يفكر في كلام الدكتور عن ازدياد تلك الحالات، وعن طلبه للراحة والهدوء التي تحتاجه ابنته، أما الراحة فتعاقب الأيام كفيل بأن ينسيها ما شاهدته، أو تناسيه في أفضل الأحوال، أما عن الهدوء ... أي هدوء هذا الذي يتحدث عنه الطبيب في هذه الايام؟

وقف عند باب غرفتها الخارجي، ونظر إليها، كانت نور تغط في نوم عميق، ولأول مرة، لم يشاهد ماريا بالقرب منها، بل كانت والدتها إلى جوارها تبكي وتمسك بسبحة طويلة، تتمم بأدعية وآيات قرآنية، وترفع يديها نحو السماء بين الحين والآخر.

_ سوف تُعاني نور، كثيراً..

هذا ما استنتجه، فهو يعلم جيداً تأثير رؤيتها للدماء على حالتها النفسية، ذات يوم، وعندما كانت طفلة صغيرة، جُرحت يدها بإحدى زوايا السرير الحادة، في ذلك اليوم، بكت بكاءً شديداً خوفاً من " الماء الأحمر " كما أطلقت عليه، حتى أُغمي عليها، وعندما أفاقت، بقيت تراقب موضع الإصابة طوال اليوم خوفاً من تسلله إلى الخارج مرة أخرى، شعر بلسع في أصابع يده جعله يعود من

خوابره التي أخذته بعيداً، رمى بالسيجارة من الشرفة وتوجه إلى غرفته ليخلد إلى النوم ...

رياح شديدة، وأشخاص يتراکضون من حولها بلا وجهة محددة، وبلا أصوات، البعض منهم يرتطم جسده بشدة في جدران المنازل المحيطة وأعمدة الإنارة، ولكنهم يتابعون جريهم وكأن شيئاً لم يكن، فوضى تملأ المكان، وكان الجميع يشير لها بعدم الوقوف هنا والمغادرة بعيداً على وجه السرعة..

كانت نور تقف على حافة طريق فُرش بعدد كبير من الرصاص والبنادق الحربية والأسلحة المختلفة، تحول قسم منها إلى اللون الأحمر القاتم بعد أن لطخت بكميات كبيرة من الدماء، تراجعت إلى الخلف بعد أن شاهدت أحدهم يقترب منها والشرر يتطاير من عينيه، ويصدر من أنفه صوت أنفاس مخيفة، وعندما أصبح على بعد خطوات منها اكتشفت بأنه ذات الشخص الذي قام بقتل تلك المرأة أمامها في وسط السوق، حمل أحد الأسلحة المرمية في الشارع ووجهه نحو جسدها، صرخ بأعلى صوته وكان له صوت مرعب.

_ توقيفي.

فرغ الشارع تماماً بعد تلك الصرخة المدوية، وهدأت الأصوات من حولها، أما هي فقد كانت ترتجف خوفاً وهي تنظر إلى السلاح

الموجه نحو صدرها بشكل مباشر، استجمعت ما تبقى لها من قوة وقالت له:

_ أرجوك لا تقتلني، أنا لم أفعل شيئاً.

وبشكل مفاجئ، أمسك أحدهم برأسها من الخلف، وكان ليده رائحة كريهة، ثم أحكم قبضته على عنقها وضغط عليه بشدة وطرح جسدها على الأرض، شعرت نور بأن عنقها بدأ يتحطم بفعل القبضة الحديدية التي كانت تشتد مع ما تبقى لها من لحظات في هذه الحياة، وبدأت تسمع أصواتاً غريبة تصدر من صدرها وفمها، أما عيناها فكانت متسمة نحو عيني صاحب تلك اليدين.

كانت هي المرأة ذاتها التي قتلت أمامها في وسط السوق، أرادت نور الصراخ في وجهها ولكن كلماتها خرجت من صدرها على شكل حشرات متتالية، صرخت المرأة بأعلى صوتها.

_ لماذا لم تنقذيني منهم، سوف تموتين الآن، جميعكم تستحقون الموت، جميعكم تستحقون الموت .

ثم أطلقت تلك المرأة ضحكة هستيرية وأخرجت لسانها وكان له رأس مدبب على هيئة سيف حاد، وهي تراقب نور وقد بدأت عضلاتها ترتخي، ثم توقف كل ذلك بعد أن ارتمت المرأة على الأرض و شخص بصرها نحو السماء ...

شهقت شهقة قوية وأخذت تصرخ.

_ لا تقتليني، لا أستحق الموت، أرجوكِ.

استيقظت والدتها على ذلك الصوت المرعب ووجدت نور تغطي وجهها بكفيها وتصرخ بتلك الكلمات، وتتنفس بطريقة غير منتظمة، ضمتها إلى صدرها حتى هدأت بعض الشيء، ثمناولتها كأساً من الماء وأخذت تمسح دموعها ...

مضى على الحادثة سبعة أيام، أمضتها نور متنقلة بين الأفكار المزعجة والكوابيس المخيفة، حبيسة فراشها، تخرج إلى غرفة والديها كمن خرج من كهف مظلم أمضى فيه عدة أعوام، تبقى في الخارج عدة دقائق ثم تعود سريعاً إلى غرفتها، لم تفلح محاولات ماريا المتكررة في إعادتها إلى حالتها الطبيعية، على الرغم من أنها بذلت جهداً كبيراً في ذلك، أما والدها فلم يكن يغادر المنزل إلا للضرورة، تحسباً لأي طارئ، فيما كانت والدتها تنام إلى جانبها، ولم تفارقها طيلة الأيام السبعة ..

كانت تصيبها نوبات بكاء بين الحين و الآخر، وخاصة عندما تأخذها أفكارها نحو ذلك المكان المخيف، حيث يظهر لها مشهد الدماء وصوت الرصاص للحظات ثم يختفي، وكانت تنظر في كل مكان من حولها، وينقبض صدرها لأي صوت أو حركة تجري بالقرب منها، ومع تعاقب الأيام أصبحت أكثر جرأة على مواجهة

تلك الأفكار بعينين خاليتين من الدمع، فقد نذفت الكثير منها، حتى بدأت تشك بأن عينيها قد استنفذت كل مخزونها، كان لمداعبات والدها ولزيارات ريماء وأسماء شبه اليومية الأثر الكبير في ذلك، وشعرت بأن تلك الحادثة أصبحت ذكرى مؤلمة ولكن يتوجب عليها أن تتجاوزها وتتعامل معها كباقي الحوادث المؤلمة التي عاشتها سابقاً .

في صباح يوم الأمس، أحست بنشاط زائد على غير العادة، استيقظت باكراً، ثم غادرت الغرفة إلى شرفة المنزل لأول مرة، وأخذت تستنشق الهواء البارد وتراقب سرب الحمام وهو يحلق بشكل دائري في سماء المنطقة، بقيت داخل الشرفة عدة دقائق، ثم عادت إلى غرفتها مجدداً، لم تنتهي مفاجئات اليوم، فقد شاهدتها والدتها وهي تتابع أحد مسلسلاتها التي انقطعت عنها مؤخراً، سارعت إلى الاتصال بزوجها وإخباره بالأنباء السارة، وأكدت له تحسن حالة ابنته الصحية والنفسية.

وفي هذا اليوم، كان والدها يستعدان لتناول الغداء، عندما خرجت من غرفتها وجلست إلى جانبهم، وضعت مارياء إلى جوارها، وقررت أخيراً أن تشاركهم طعام الغداء، كانت علامات السرور والبهجة واضحة على وجوه الجميع، تحدثت والدتها وهي تنظر إلى والدها.

_ ألم أقل لك البارحة بأنها تحسنت ؟ حمداً لله.

بدأت نور أكثر نشاطاً من السابق، ولحسن حظها فقد كانت وجبة الغداء لهذا اليوم هي " المشحمية " وهي من وجبات المطبخ الديرى اللذيذة، تناولت قرصين منها، وأخذت تتبادل الأحاديث مع والدها، وكان يستمتع بمشاهدة ابنته تعود للحياة مجدداً، وعندما انتهت من تناول غدائها أعلنت لهم.

_ سوف أعد لكم الشاي وأنتظركم في الشرفة.

كانت الشرفة مليئة بسلاسل الخضار المجففة، وقد علق على حبال الغسيل الممتدة على طول الشرفة، مضى أسبوع على آخر جلسة طويلة في هذا المكان، أخذت تراقب المشهد مجدداً..

تشهد الحارة مباراة كرة قدم بين مجموعتين من الأطفال، وهو الحدث الذي يتكرر كل يوم، وضعوا عدة أحجار صغيرة وصنعوا منها مرميين في منتصف الطريق، وأخذوا يتنافسون على ركل كرة فارغة حتى منتصفها من الهواء، وعدد آخر أحدثوا حفرة صغيرة على رصيف الشارع وأحاطوها بالكرات الزجاجية، وقد ملأت صرخاتهم المكان بعد أن استطاع أحدهم إدخال كرة زجاجية داخلها، وإلى جوارهم تقف مجموعة من الفتيات الصغيرات يحملن دمي ويتنافسن فيما بينهن على عدد القفزات من خلال حبال صغيرة يلوحن بها، أما شبان الحي فقد غادروا وهم يحملون كرة قدم، وعبوات مليئة بالماء، ويرتدي الجميع قمصاناً زرقاء كتب عليها من الخلف بخط عريض " نادي الفتوة الرياضي "

باستثناء ثائر، الذي كان يقف على سطح البناء المقابل لمنزلهم رفقة شاب آخر، وهو يحمل طائرًا أبيض اللون بيده، ويساوم على ثمنه، والجيران يجلسون على أبواب المنازل وهم يحتسون الشاي الساخن ويتبادلون الأحاديث والضحكات .

افتقدت هذه التفاصيل في الأيام السابقة، وحدها صرخات الأطفال المدوية هي من كانت تزورها في قوقعتها، وفي تلك الأثناء كان والدها يعد لها مفاجأة جميلة، وذلك ما يفسر تأخرهما عن اللحاق بها إلى الشرفة، فقد اقترحت عليه أمينة الاتصال بريما وأسماء وطلب حضورهم، وذلك لاستغلال الحالة الإيجابية التي تعيشها ابنتهم .

فتح باب الشرفة ودخلت الفتاتان، وشكل دخولهما المفاجئ صدمة إيجابية إضافية كانت نور بحاجة ماسة إليها، وظهرت علامات السرور والبهجة على وجهها وهي تتحدث إليهم، ناوлаها مجموعة من الأوراق وأخبرها بأنها تحتوي على المحاضرات التي تغيبت عنها في الأسبوع المنصرم، أخذت تتنقل بين تلك الصفحات وكأنها تحاول أن تتعرف على الحياة الجامعية مجددًا، تساءلت أسماء.

_ إذاً سوف ترافقينا إلى الجامعة غداً، أليس كذلك يا نور ؟

أجابت دون أن ترفع رأسها عن المقرر.

_ بالطبع يا أسماء.

أعلن والدها.

_ وسوف أوصلكن بسيارتي احتفالاً بهذه المناسبة

لاقت كلماته ترحيباً من الفتيات الثلاثة.

لم تنتهِ الأحاديث بعد، ولكن اقتراب المساء جعل ريمًا تقترح متابعة الجلسة في الغد، أجابتها نور متفهمة.

_ نعم، غداً سنقضي يومنا سوياً يا ريمًا.

رافقتهما حتى باب المنزل، ولوحت لهما بيدها بعد أن انطلقت بهما سيارة والدها ...

أمسكت نور بمجموعة الأوراق وعادت بها إلى غرفتها، تعثرها رغبة شديدة في العودة إلى جو الدراسة التي افتقدته، كانت تقلب الصفحات وتنهاي المحاضرة تلو الأخرى، وتجري لنفسها بعض الاختبارات لتتأكد من معلوماتها المخزنة حديثاً، أنهت قسماً لا بأس به من الأوراق، ولكن تبقى قسم كبير منها، أما ماريا فقد كانت سعيدة وهي تراها تتخلص من حالة الإحباط التي عاشتها في الأيام الماضية، دخلت والدتها إلى الغرفة وهي ترتدي ملابس الصلاة الفضفاضة، تحمل بيدها كوب كبير من عصير البرتقال، ارتسمت ابتسامة على وجهها عندما شاهدها منهمكة في قراءة المحاضرات.

_ كيف الحال يا نور.

أجابت وهي تشير لها إلى المحاضرات.

_ لقد فاتني الكثير منها يا أمي، وفي الغد، هناك محاضرات إضافية، ولكنني سأبذل مجهوداً مضاعفاً في الأيام القادمة، لتعويض كل شيء.

عَقبت والدتها.

_ سوف تتمكنين من ذلك يا نور، وستتفوقين على باقي زملائك، أنا على ثقة تامة بكِ يا عزيزتي.

سُمع صوت قادم من جهة باب المنزل الخارجي، يبدو أن والدها قد عاد لتوه، دلفت والدتها إلى الخارج وأغلقت الباب خلفها، وعادت نور مجدداً إلى قراءة المحاضرات ..

لم يمض الكثير من الوقت على هذا الحال، فقد صدر صوت انفجار شديد، اهتزت له ستائر الغرفة وكأس الماء الموضوع على منضدتها، يبدو أن موقع الانفجار بعيداً بعض الشيء عن منزلها، ولكنه كان كافياً لإثارة الخوف في كل مكان، أعقب الانفجار إطلاق نار كثيف من كل مكان في لحظة واحدة، وكأن عود ثقاب قد أُلقي في بحر مليء بالبنازين، تسبب الانفجار وما تلاه في تشتت أفكارها لبعض الوقت، حاولت العودة إلى المحاضرات مجدداً ونسيان ما يجري في الخارج، قرأت قليلاً وأخذت تدون بعض الكلمات الهامة على دفتر الملاحظات، وعندما أجرت اختباراً صغيراً للمعلومات

التي تحصلت عليها منذ بدء المعركة تبين بأنها فقدت قسماً كبيراً منها، وضعت ما تبقى من الصفحات في الدرج المخصص للمحاضرات ونهضت واقفة، أحست ولأول مرة بأن صوت الرصاص لم يعد يخيفها وهي تنظر إلى النافذة المغلقة بإحكام، فلم يعد لها تلك الرهبة التي كانت تعصف بها في بداية الأمر، وأخذت تفكر في الإقدام على مغامرة خطيرة ..

_ الاقتراب من النافذة ومعرفة ما يجري في الخارج، بل ومشاهدة ذلك بالعين المجردة.

كانت تعتبر مجرد التفكير في ذلك هو ضرب من الجنون، ولطالما تجنبت النظر نحو تلك النافذة أثناء الاشتباكات الليلية، أما الآن .. فقد بدت لها تلك الفكرة مثيرة وغير مُخيفة.

خطوات متثاقلة، ترقب، وكثير من الحذر.

كانت تسير نحو النافذة، اضطرت للتوقف عدة مرات عند سماعها صوت الألحان التي تبثها النافذة، وفكرت في التراجع نحو سريرها وصرف النظر عن تلك الفكرة بعد أن سمعت صوت انفجار عنيف كاد أن يتسبب في فتح النافذة بفعل ضغط الهواء، ولكنها أصبحت على بعد خطوة واحدة ولم يتبق سوى فتح النافذة، وهي اللحظة التي تحتاج فيها إلى التحلي بالشجاعة الكافية، حفزت نفسها بعد أن أمسكت بمقبض النافذة الحديدي.

_ الآن..

أدارت المقبض الحديدي البارد بيد مرتجفة، أغمضت عينيها ثم سحبته بهدوء، وماهي إلا لحظة واحدة حتى أدركت بأنها فتحت للتو أحد أبواب الجحيم السبعة.

كانت دير الزور مخيفة جداً، تتشح بالسواد، بعد أن قطع التيار الكهربائي عن مناطق الاشتباكات، والأحياء القريبة منها، وتصدر منها أصوات مرعبة، ومفزعة، كأم ثكلى قتل جميع أبنائها أمام عينيها.

كُتل لهب تظهر بشكل مفاجئ وتتضاءل ببطء، وأصوات الرصاص المتداخلة تمزق سكون الليل ووحشته، شاهدت خمسة نقط حمراء تصعد إلى السماء بتناسق جميل، وفي موضع آخر شاهدت كميات كبيرة من تلك النقاط تصعد نحو السماء بطريقة غير منتظمة، وبعد عدة لحظات سمعت أصوات سيارات الإسعاف وهي تقطع شوارع المدينة جيئة وذهاب.

"أهو قدر هذه المدينة أن يصيبها كل هذا الجنون، أم أن أمسياتها الجميلة قد أغرت محاربيها فقرررو الاحتفال بها، والقيام بدعوة سكان المدينة لحضور رقصتهم المسائية المزعجة "

سمعت بعض الهمسات المنخفضة، وصوت خطوات سريعة، لم تتراجع إلى الخلف كما أوعز لها خوفها، بل دفعها الفضول إلى أن تخرج رأسها من النافذة لترى ما الذي يجري بالقرب منها ..

هناك مجموعة من الرجال يساعدون شاب على متابعة مسيره، وبدا واضحاً أنه قد تعرض لإصابة في قدمه، وضعت له قطعة قماشية على موضع الإصابة، وأخرى على بين أسنانه، وأخذوا يحثونه على الصبر والتحمل حتى يتمكنوا من مغادرة المكان بلا خسائر إضافية، وما أن وصل الجميع إلى نهاية الشارع حتى جاءت سيارة مسرعة، وبلا فوضى، حملت الجميع وغادرت بعيداً.

اكتفت بهذا القدر، لم يكن الأمر خطيراً كما كانت تعتقد، فالمعارك تجري في مناطق بعيدة عن موقع المنزل، وأسرت في نفسها بأنها ستعود إلى مشاهدة المعارك كلما حدثت من تلك النافذة مجدداً، أغلقتها بإحكام بعد أن تجمدت غرفتها بفعل الهواء البارد الذي دخل إلى الغرفة، وكان مشبعاً برائحة البارود الكريهة ...

_ كيف سيكون الحال لو قرر هؤلاء المحاربون اختيار منطقتنا لتكون ساحة لإحدى مواجهاتهم.

فكرت في ذلك أثناء عودتها إلى المنضدة من جديد، ولكنها سرعان ما نفت هذه الفكرة، مؤكدة لنفسها بأن لا مقرات عسكرية أو حواجز قريبة من منطقتهم قد تتسبب بمثل هذه الأشياء، لم يعد

بالإمكان متابعة قراءة المحاضرات في هذه الأجواء، ولا حتى قراءة كتاب " عيناك قدري " الذي أشرته حديثاً، أمسكت بالقلم وبدأت تكتب على ورقة بيضاء ..

_ يُطلقون الرصاص، الكثير من الرصاص، في وطن على وشك الموت، ومدينة تحتضر ..

لأول مرة منذ بدأ المعارك، تمكنت من التغلب على خوفي ومشاهدة إحداها بعيني، هذه المرة لم يحدثني أحد .. رأيت السماء وهي تلتهم الرصاص المُضيء بنهم شديد، يبدو أن الرصاص لا يؤذيها كما يفعل بنا نحن، لذا بدأت أفكر في أن أقنع والدي لأن نتقل إلى السماء، حيث لا خوف، وليطلقوا الرصاص متى شاءوا ..

التفتت إلى اللوحة الكريستالية، والقت نظرة خاطفة إليها، تابعت _ ورأيت الأرض وهي تتقياً أنوار بيضاء وكُتل لهب، نعم، كُتل لهب حمراء مُخيفة، تحتفظ الأرض بكميات كبيرة منها، لذا تُخرجها من حين إلى آخر ..

هذا يحدث حقيقة، نحن الآن على سفح بركان من نار و جنون، لا نعلم متى ينفجر وتُغرقنا حممه إلى الأبد ..

طوت الورقة بعد أن أعادت قراءة ما دونت في داخلها، ثم حملت ماريا وعادت إلى سريرها، لم تتوقف المعارك بعد، بل كانت تشتد

مع مرور الوقت، وأفزعته فكرة أن المعركة ستدوم لأيام طويلة، تأملت ملياً في الوجوه الثلاثة الراقدة على الرف الخشبي، لم تحدثهم كما كانت تفعل في الأيام السابقة، بل فضلت الصمت والاكتفاء بمبادلتهم النظرات، وهكذا حتى باغتها الظلام ...

_ صدر صوت شديد أيقظها من نومها، كانت ترى أمامها رجلين يحملان بأيديهم أسلحة حربية ويسيران بخطوات متعاكسة جيئة وذهاب، كان الأول يرتدي لباساً عسكرياً من النوع الثقيل، ويضع سيجارة في فمه، والآخر يرتدي بيجامة رياضية، ويحيط رأسه بكوفية سوداء، وكل منهما ينظر إلى الآخر باشمئزاز.

حاولت التحدث إليهما وسؤالهما عما يجري، إلى أنها تفاجأت بقطعة قماشية أحكمت إغلاق ثغرها، وقطعتين أخرى وثقت قدميها ويديها بصورة غريبة.

كان المكان التي وجدت نفسها فيه عبارة عن غرفة متوسطة الحجم، مليئة برائحة الرطوبة وروائح أخرى كريهة تشكل مزيج يدعو للغثيان، لم تستطع التأكد من ماهية الأشياء التي تحيط بها لأن الضوء المعلق في سقف الغرفة كان خافتاً جداً، ولكنها استطاعت أن ترى قضبان حديدية تفصلها عن الرجلين.

_ إنه سجن.

لم تجد تفسيراً لما يجري، وعندما حاولت تحريك نفسها لتبحث في المكان عن أي شيء بالقرب منها، اصطدمت قدمها بشيء بارد وصلب، انبطحت على بطنها وزحفت نحو مكان قدمها حتى تتحقق من الأمر، وبصعوبة شديدة وصلت إلى ذلك الموضع، وعندما فتحت عينيها كاد عقلها أن يفارقها من هول الصدمة ..

كان رأسها قد التصق برأس بشري أصلع مغمض العينين، تسمر جسدها بفعل تلك المفاجأة، حاولت كبت صرخة لاشعورية ولكنها لم تتمكن من ذلك، مما تسبب بغضب الرجلين.
صرخ .

_ يُمنع الكلام، وتُمنع الحركة، حتى ننتهي من عملنا، ومن يُخالف التعليمات...
قاطعته الآخر.

_ سوف يموت، من يُخالف التعليمات سيموت.
أفزعها صوت الرجل الثاني، وفكرت.
_ إذاً هناك آخرون.

تمالكت أعصابها وبدأت تزحف هرباً عن ذلك المجهول، اكتشفت بأن المكان ممتلئ بأناس مكمني الأفواه، بعضهم أطفال

يرتدون ملابس المدرسة، والبعض الآخر يرتدي ألبسة العمل، والجميع نائمون، وغير مباليين بأصوات الرصاص القادمة من الخارج، ولا يغيرون اهتماماً إلى وجودهم داخل هذا السجن الغامض، مرت ساعات الليل ثقيلة كثيبة، محملة بالكثير من أصوات الرصاص والقذائف التي تشتد من حين لآخر، حاولت إيقاظ فتاة تمسك بمقرراتها الجامعية، ولكن تلك الفتاة كانت تغط في نوم عميق، ولم تستجب لمحاولاتها المتكررة.

ومع شروق الشمس، فتح باب السجن، وأخذ الرجلان يصرخان بأعلى صوت ويضربان بأسلحتهما على قضبان الحديد، محدثين أصواتاً شديدة، وماهي إلا لحظات حتى غادر الجميع، الطالب إلى مدرسته، والموظف إلى عمله، وحمل أربعة شبان يرتدون ملابس بيضاء ذلك الرجل الأصلع الذي كان ملقى في وسط السجن إلى المستشفى بعد أن فارق الحياة.

وما أن فرغ السجن من نزلائه، حتى دخل الرجلين واستلقى كل واحد منهم في زاوية من زوايا السجن واضعين أسلحتهم إلى جانبهم خوفاً من أي طارئ، وخلال لحظات، سمعت نور شخيرهم يملأ المكان ..

الفصل الثاني

١

صباح جديد، لا يختلف كثيراً عن سابقه، استيقاظ متأخر، ازدحام مروري، والكثير من الحواجز..

اختار ضياء الجلوس على الكرسي المقابل لباب الكافتيريا الرئيسي، ليتأمل في وجوه الداخلين، وهذا ما اعتاد عليه مؤخراً، كان ضياء وأصدقائه أول مجموعة تدخل إلى كافتيريا الجامعة باكراً، جلسوا على طاولة منعزلة في إحدى زواياها حتى يتسنى لهم إجراء بعض الأحاديث التي تحتاج إلى الكثير من السرية، وحرصوا على إخفاء أصواتهم خوفاً على أنفسهم من الغرباء، تحدثوا عن مشاركتهم في الاحتجاجات الشعبية الحاشدة التي جرت يوم أمس، كانت منظمة بشكل لافت وظهرت على وسائل الإعلام المختلفة بصورة مثالية، و التقطوا لأنفسهم صور كثيرة إلى جانب الشعارات الثورية التي زينت الشوارع، وإلى جانب صور الشهداء، ولكنها انتهت بطريقة عنيفة، حيث حضرت سيارات رباعية الدفع محملة بالرجال المدججين بالسلاح، وفور وصولهم، أطلقوا النار من خلال بنادقهم الحربية، وتسبب ذلك في فوضى عارمة في صفوف المحتجين، وتفرق ضياء ورفاقه هرباً من الرصاص.

تحدثت بأسل بصوت مبجوح:

_ دخلت إلى أحد الأبنية السكنية، ولكن أخافني وجود أشخاص كثيرين في داخله، لذلك قررت أن أغادره إلى مبنى آخر، اضطررت إلى القفز من على جدار المبنى الخلفي إلى الأرض، وعلى الرغم من أن المسافة كانت مرتفعة، إلا أنني لم أشعر بأي ألم حينها، كنت خائفاً ومرتبكاً، ولكن في وقت لاحق، شعرت بألم شديد في قدمي، وما زلت أعاني منه إلى الآن ..

أشار لهم إلى كاحله حيث موضع الإصابة، تحدثت شادي:

_ وأنا كذلك، لقد سمعت صوت الرصاص وهو يمر بجانبي، والحمد لله، لم أصب بأي منها، وعندما قامت السيارة بمطاردتنا، اختبأت في أحد المطاعم حتى هدأت الأحوال في الخارج، ثم عدت إلى المنزل.

تحدثت وليد:

_ لن يُرهبنا سلاحهم، ولن يثنيينا عن متابعة الطريق الذي اخترناه، نعم، لا بد من التضحية الآن، ولكننا سننتصر في النهاية.

تحدثت البقية عن المخاطر التي تعرضوا لها حتى وصولهم إلى منازلهم، واستمر الحديث لبعض الوقت، وفي النهاية اتفقوا على الاجتماع مساءً في منزل وليد للمشاركة في المظاهرة المسائية.

بدأت مجموعات الطلاب بالتوافد إلى الكافتيريا، وانتهى ذلك النقاش الذي استمر لنصف ساعة، واستبدل بآخر رياضي، احتد النقاش حول جائزة الكرة الذهبية لهذا العام، شادي يعتبر أن الأرجنتيني ليونيل ميسي يستحق تلك الجائزة، وبجدارة، ولا مجال للحديث في ذلك، يؤيده وليد، أما باسل فإنه يصر على أن البرتغالي كريستيانو رونالدو هو الأجدر بها نظير ما يقدمه من أهداف حاسمة، يؤيده ضياء، واقترح أمجد على أصدقائه الطلب من الفيفا منح كلا اللاعبين كرة ذهبية، لهذا الموسم فقط، إرضاءً للجميع، فهو لا يهتم بمتابعة بكرة القدم ...

_ إنها هي..

صرخ بذلك صوت من أعماقه عندما شاهد نور تدخل من باب الكافتيريا الرئيسي رفقة صديقتها.

_ نعم، نعم إنها هي.

أكد ذلك لنفسه بعد أن أعاد النظر إليها مجدداً.

لم يرها منذ ذلك اليوم المشؤوم، وعلى مدار الأيام السبعة السابقة، كان يجلس في نفس المكان ينظر إلى الباب الرئيسي، منتظراً دخولها بأي لحظة ...

بدا أن ذلك الحادث المؤسف قد ترك أثره على هيئتها، وكان ذلك واضحاً من خلال هدوئها المبالغ فيه، ولكنها ما زالت جميلة، بل زادها ذلك الهدوء فتنة وجمالاً، كان يراقب طريقة حديثها مع

الفتاة القصيرة، وابتسامتها الساحرة التي كانت من نصيب الفتاة الأخرى.

_ الآن.

قرر أن يتخلى عن ضعفه أمام عينيها، وشعر بأنه يحتاج إلى القيام بشيء ما يؤدي إلى الحديث معها، أخذ يفكر في طريقة ما تجعله يقرب منها، واستغل انشغال أصدقائه بنقاشهم الحاد، لاحت له فكرة مبتذلة، وباشر بالتنفيذ.

_ صباح الخير، هل تحتاجون الى هذا المقعد الفارغ ؟

تفاجأ الثلاثة بكلماته التي قطعت عليهم حديثهم، وكان يوجه كلماته ونظراته نحو نور.

_ لا نحتاجه، بإمكانك أخذه.

فاجأته كلمات الفتاة ذات العينين الخضراوين الحادة، وتسببت له ببعض الارتباك، وكانت عيناها موجهتين نحو عينيه بشكل مباشر، سرعان ما تدارك الأمر وأعاد النظر نحو نور متجاهلاً تلك الفتاة ..

لا يوجد وصف دقيق للحظة التي يجد فيها المرء نفسه يقف أمام فتاة استحوذت على قلبه، تخونه جميع الكلمات التي أعدها مسبقاً، ويجد نفسه غير قادر على التعبير عما يدور في ذهنه ... عيناها جميلتان إلى الحد الذي يجعلك تفكر في القيام بأي شيء للفوز بهما، فتحت نور مقررها هرباً من نظراته الحادة وأخذت تقرأ

فيه، ألقى نظرة خاطفة على ذلك المقرر وقرأ كلمة تتألف من ثلاثة أحرف كشفت له أحد الأسرار التي أمضى وقتاً طويلاً في محاولة معرفته، حتى شعر بأنه لن يستطع حل تلك الأحجية حتى لو أمضى عاماً كاملاً في طرح الفرضيات والتوقعات حولها.

_ نور، نعم اسمها نور.

استشعرت ريما الخطر عندما شاهدت نظراته نحو نور، وتأكدت من أن حضوره لم يكن من أجل المقعد، فقررت التدخل وإنهاء كل ذلك، وقفت أمامه.

_ هل هنالك شيء آخر غير المقعد ! تفضل، يمكنك الانصراف.

كان صوتها مرتفعاً بعض الشيء، دفعت المقعد نحوه بحركة سريعة، لم يعد بإمكانه البقاء لوقت أطول، خوفاً من النتائج الكارثية التي ستترتب على ذلك، خاصة مع وجود فتاة كهذه بالقرب منها ..

_ لا، شكراً لكم.

حمل المقعد وغادر عائداً نحو أصدقائه تتبعه نظرات الفتيات الثلاثة الفضولية، مخلفاً ورائه رائحة عطر قوية، بقيت لعدة دقائق بعد مغادرته، وكم كبير من التساؤلات.

لم ينتهِ النقاش بعد، بل تطور إلى استعراض عدد أهداف كلا اللاعبين، وعدد البطولات التي حققها مع أنديةهم ومنتخبات

بلادهم، مستشهادين بأقوال كبار الرياضيين، من أساطير ونجوم سابقين، ومقدمي برامج رياضية تحظى بمتابعة كبيرة، لم يكن يهتم كثيراً إلى نتيجة ذلك النقاش الآن، بل اكتفى بمشاركة زملائه ببضع كلمات.

شهدت الكافتيريا معركة عاطفية بينهما، وأخذا يتبادلان إطلاق النظرات، وفي معركة كهذه يستشهد أكثر أطرافها خجلاً، وهذا ما أدركته نور عندما فرت عينها من إحدى نظراته، كان يطيل النظر إليها، دون ارتباك، ولا يقطع تلك النظرات إلا إحدى الأسئلة التي يوجهها إليه أحدهم، أما هي، فقد كانت تلقي عليه نظرة خاطفة، ثم تختبئ خلف جدران الخوف والارتباك ..

تابعت حديثها مع الفتاتين وهي تمسك بمنديل بللته قطرات العرق المتجمعة على جبينها، وبدا عليها الارتباك الشديد، وفي لحظة مجنونة، تلاقت نظراتهما، لم تفر هذه المرة، كانت قريبة منه رغم بعد المسافة بينهما، و بالقدر الذي يمكنه من الغوص في تفاصيل عينيها، وفي اللحظة التي قرر فيها ضياء منحها ابتسامة سقط كوب الشاي من يدها، محدثاً صوت تحطم شديد، وتناثر قطع البلور على بلاط الكافتيريا ..

٢

للصبر حدود تضيق وتتسع، وقليلون أولئك الذين يملكون القدرة على الصبر لوقت طويل، بل ومحظوظون أيضاً، ولكن في بعض الأحيان، يُصبح الصبر عبء على صاحبه، وهذا ما حدث مع ندى عندما مارست أقصى درجات ضبط النفس في قصتها مع ساندي..

انتظرت حتى غادرت والدتها المنزل، حتى تضع النقاط على الحروف، وتعيد الأمور إلى نصابها الحقيقي، أبتت على ساندي وأخرجت جميع الدمى بالإضافة إلى سلة الألعاب من غرفتها، وأغلقت الباب خلف الجميع ..

_ ساندي، لقد أخبرتني بيلا بكل شيء، إنك تتصرفين بأنانية مفرطة.

لم تجب الدمية، اكتفت بابتسامتها المعتادة.

_ أجبيني، ما شأنك بإيميلي، ولماذا بكت البارحة ليلاً؟

لم تظهر الدمية أدنى شعور بالذنب، على العكس تماماً، كانت تنظر إلى عيني ندى وتبتسم بكل جرأة.

_ حسناً، إن كنت لا تحبينها هذا لا يمنحك الحق في إخراجها من السلة، فهي تتسع للجميع، وهناك شيء آخر يجب أن تعلميه. أمسكت بها بقوة وسحبته إلى الأعلى.

_ أنا من يقرر هنا، ولا شأن لك بمن يغادر سلة الألعاب ومن يبقى فيها، هل فهمتي ؟

بدأت ساندي تتلملم من حدة الحديث، وهي تفكر في تلك الدمية الجديدة وما أحدثته من خلافات منذ مجيئها، فلم يسبق لندی أن تحدثت إليها أو حتى لبقية الدمى بهذه الطريقة، وبالأمس اضطرت إلى متابعة ميكي ماوس، وهو البرنامج الكرتوني المفضل لدى إيميلي، بالإضافة إلى أنها لم تجد مكاناً للنوم إلا في أسفل السلة بعد أن احتلت الدمية الجديدة مكانها في الأعلى، هذه الأسباب، وغيرها، جعلتها تشعر بأن ندى تفضلها على جميع الدمى، تابعت ندى حديثها الحاد.

_ سوف تنالين عقوبة شديدة يا ساندي، حتى تُخرجي تلك الأفكار المستفزة من رأسك.

أمسكتها من يدها ثانية واتجهت نحو الخارج، وبدأت عليها علامات الغضب الشديد وهي تجرها بكل قوة، وما إن فُتح باب الغرفة حتى توقفت الدمى عن الحديث فيما بينها.

_ اسمعوني جيداً، سوف تغادر ساندي سلة الألعاب عقوبة لها على سلوكها العدواني تجاه الجميع، وخاصة إيميلي، وستبقى خارج السلة ثلاثة أيام كاملة، تقضيها في غرفة ضياء، وحتى انتهاء العقوبة، يمنع على الجميع التواجد في تلك الغرفة والحديث إليها، ومن يخالف التعليمات سوف يتعرض لعقوبة مضاعفة ويبقى خارج السلة أسبوعاً كاملاً ..

تفاجأ ضياء لدى دخوله إلى المنزل، كانت ندى تركض نحو باب غرفته، فتحت باب الغرفة وألقت بدمية كانت تحملها على الأرض بجانب خزانته.

_ ندى، ما الذي يجري؟

اتجهت الطفلة نحو سريره واستلقت عليه، غطت وجهها بكفيها وأخذت تبكي ...

على الطرف الآخر كانت نور تمسك بقطعة الشوكولاتة التي أعطهاها إياها العم عبد الرحمن أثناء عودتها من الجامعة، وعلى بعد عدة خطوات من منزلها وجدت عدداً كبيراً من الأطفال يقفون في منتصف الطريق ويراقبون المارة، وقد أغلقوا الطريق بعدد من الحجارة الصغيرة، لم تكثرث للأمر وتابعت مسيرها، وعندما أرادت تجاوز تلك الحجارة وقف أمامها أربعة أطفال قاطعين عليها الطريق، سألتها أكبرهم وكان يحمل بيده سيفاً بلاستيكياً.

_ إلى أين ؟

أما أصغرهم فلم ينتظر إجابتها، وتساءل

_ هل لديك تصريح دخول ؟؟

تفاجأت نور من وقوف الأطفال أمامها وحديثهم الغريب، أجابت باستغراب:

_ تصريح دخول ! ماذا ؟

تقدم إليها طفل آخر يرتدي ملابس المدرسة ويحمل بيده أنبوباً بلاستيكياً أخضراً، وقد أجرى عليه بعض التعديلات حتى أصبح على شكل بارودة قنص.

_ يتوجب عليك الحصول على تصريح دخول من القائد حتى تتمكني من متابعة طريقك.

كبتت ضحكتها وهي تنظر إلى الأطفال كل واحد منهم على حدة، وكأنهم تدربوا مسبقاً على القيام بالمهام التي أوكلت إليهم، وهم يوجهون لها نظرات تحدي.

_ حسناً، وأين هو القائد ؟

نظر الأطفال الأربعة ببراءة إلى الرصيف الجاني وأشار لها أحدهم.

_ هناك، إنه أبو علي.

كان أبو علي طفلاً في الثامنة من عمره، يجلس وحيداً ويضع تحت قدمه كرة قدم رسمت عليها أعلام دول كثيرة، وبدأ بأن تلك الكرة قد ساعدته في الوصول إلى منصب " قائد لأطفال الحارة " لاحظت وجود عدة أوراق إلى جواره كتب في أعلاها.

" أشبال دير الزور "

وبخط عريض

" تصريح دخول "

أشار لها بالاقتراب.

_ هل يمكنني الذهاب إلى منزلي ؟

كان أبو علي يتصنع لامبالاة بريئة وهو ينظر إلى قطعة الشوكولاتة التي تمسك بها نور.

_ حسناً، أين هو منزلك ؟

أشارت له نحو باب منزلها.

_ هناك

_ ما هو اسمك ؟

_ نور

أمسك قطعة من الورق وكتب بخط رديء.

_ معا الموافقا

وضع توقيعه بعد أن دون اسمها في الأسفل وناولها إياها، أمسكت بالورقة وكبتت ضحكة أخرى كادت أن تتفجر في وجه الطفل، رفع رأسه وتحدث إليها بكبرياء، وهو يضع قدم فوق قدم.

_ نحن هنا لحمايتكم، إن واجهتك أي مشكلة يمكننا مساعدتك دائماً.

لاحظت بأنه ينظر نحو قطعة الشوكولاتة، وتوقعت بأنه سينقض على يدها لينزعها بالقوة، خاصة وأنه محاط بمجموعة من رجاله الأطفال، وهم ينتظرون منه أي إشارة.

_ تفضل.

أعطته قطعة الشوكولاتة، أمسكها ووضعها إلى جانبه، ثم أمسك القلم ودون اسمها على جميع الأوراق وناولها إياها.

_ يمكنك الدخول والخروج متى تشائين.

أمرهم برفع الأحجار وفتح الطريق، وطلب من طفلين مرافقة الفتاة حتى باب منزلها لحمايتها، ثم أخذ يمضغ الشوكولاته بعد أن نزع غلافها الورقي ومضى يجري خلف الكرة ...

تابعت نور خطواتها المتبقية حتى باب المنزل وهي مُحاطة برجلين يبلغان السابعة من عمرهما، لم تستطع كبت ضحكتها مرة أخرى، عندما التفتت إلى الخلف وشاهدت " أبو علي " وقد دخل في معركة مع بقية الأطفال على قطعة الشوكولاتة، وما إن وصلت إلى باب المنزل حتى تشكرت الطفلين على خدماتهم، وسارعا إلى المغادرة بعد أن انتهت مهمتهم ..

_ هناك ضيوف في المنزل.

قالت ذلك لنفسها بعد أن لاحظت وجود زوجين من الأحذية أسفل باب المنزل الخارجي، سارعت إلى فتح الباب بهدوء واتجهت نحو غرفتها دون إحداث أي ضجة، أيقظت ماريما التي بدت عليها علامات الضجر، ثم سألتها:

_ من هناك؟

لم تجبها ماريما، بل أشاحت بوجهها.

سمعت صوت غير بشري قادم من غرفة الاستقبال.

_ إنها كاتيا.

قفزت فرحاً بهذا الخبر، بدلت ملابسها على عجل وتوجهت إلى غرفة الاستقبال، ألقت التحية على الأستاذ جابر، وقبلت زوجته سارة وطفلتهم مريم، وكانوا شركائهم في المبنى، سألتها أستاذها السابق عن دراستها في الجامعة، أجابته بإيجابية وحدثته عن ارتياحها لنتائج امتحانات الفصل الأول، وبأنها ستبذل جهدها حتى تكون نتائج الفصل الثاني أفضل من الأول، ثم شرعت في البحث عن كاتيا في كل مكان مصدرة صوت مواء يشابه صوت القطاة إلى حد ما، وقد اعتادت على التحدث إليها بلغتها دائماً، وغالباً ما يحصل تفاهم بينهما في نهاية الأمر، وجدتها ملتفة على نفسها تحت أحد المقاعد الخشبية، تلعق جسدها، وكانت تستخدم هذه الطريقة بعد أن يمسها أحدهم ويداعبها، وكأنها تريد بذلك إزالة أي أثر بشري علق على جسدها.

– كوكي

حملتها بين يديها وأخذت تداعب رقبتها وتمسح على رأسها .. كاتيا، قطاة سارة، صغيرة الحجم ولونها مزيج بين الأبيض والرمادي، ولها أنف وردي، أما عيناها فقد كانتا زرقاوين صافيتين، ولعل ذلك هو الشيء الوحيد الذي يتشاركانه، وقد نشأت صداقة قوية بينها وبين نور نتيجة زيارات العائلتين المتكررة.

– سوف أجلب لك طعامك المفضل يا كوكي.

ذهبت بها إلى المطبخ وملأت لها وعاءها البلاستيكي بالحليب، وضعتهما على الأرض، اقتربت كاتيا من الوعاء وهي تشتتم ما في داخله، ثم أخفضت رأسها وأخذت تلحق الحليب بلسانها الأحمر.

كانت ماريا تراقب كل ذلك بنفاذ صبر، إذ أنها لا تستلطف زيارات كاتيا المتكررة، وتعتبر القطط متطفلة وانتهازية، تظهر وكأنها كائنات لطيفة أمام البشر، وتحاول إخفاء ذلك الجانب المظلم من عالمها وتحافظ به لنفسها، ولكن أياً كان، فهي لا ترغب في رؤية أحد ما يأخذ مكانها من اهتمام نور، سواء القطط أو البشر، أو حتى من الجن، انتهت كاتيا من وجبتها، واقتربت من ماريا، أعدت الأخيرة نفسها لتلك الدقيقة المجنونة، وهي أبشع دقيقة قد تعيشها طوال زيارة كاتيا، أغمضت عينيها وتحسست موضع الإصابة القديم، كانت إصابة بليغة، نزت فيها كمية كبيرة من القطن، وهي الآن قد تتعرض لإصابة مماثلة أثناء هذه الدقيقة المرعبة، حاولت الصراخ، وإيقاف هذه المهزلة، ولكنها لم تستطع ذلك، أغمضت عينيها معبرة بذلك عن سخطها الشديد عما يحصل، وهذا أقصى ما يمكن للدمى فعله في حالة كهذه ..

انشغل يوسف بمنافسة الأستاذ جابر في لعبة " البوراكو "، وهي لعبة تلقى رواجاً و واسعاً في المدينة، تحتاج إلى القيام بعمليات حسابية معقدة، والكثير من الهدوء والسجائر، في حين يدعي البعض بأنها لعبة تقوم على الحظ، والحظ فقط هو من يكفل لك

الفوز فيها، وهو ادعاء كاذب، أما حقيقة الأمر فالفوز فيها يتطلب حذر و ذكاء شديد، وبعض الخبرة.

علت أصواتهم عندما اقتربت المباراة من نهايتها، وكان الأستاذ جابر أكثر هدوءًا بعد أن تقدم على والدها بفارق كبير، وما أن سحبت آخر ورقة حتى أخذوا يتبادلون الاتهامات، وهذه نهاية طبيعية للعبة البورako ..

مر الوقت سريعاً، كانت ابتسامته تلوح لها من حين إلى آخر، وهي تحاول جاهدة الهروب منها، تعرضت سابقاً إلى مواقف كثيرة في الجامعة وفي طريقها إليها، وحاول شبان كثير ملاطفتها، حتى ذلك الشاب الغريب نفسه، كان يختلس النظر إليها من حين إلى آخر، وقد لاحظت ذلك منذ وقت طويل، وفي أحد الأيام ألقى لها قصاصة ورقية عندما كانت في إحدى المكتبات، ولكنها لم تعره أي اهتمام، ولكن لم يسبق أن تجرأ أحد على الاقتراب منها بهذه الطريقة .

كانت عيناه توجه لها نظرات حادة، وكأنه يحاول من خلالها إيصال رسالة مفادها " لن تستطيعي تجاهل هذه النظرات بعد اليوم "

شيء ما يحملها على التفكير في ذلك الشاب، ويجعلها متشوقة لمعرفة سر تلك النظرات الغامضة، أخذت تفكر فيما لو قرر ذلك

الشاب التقرب إليها مجدداً، ما هو التصرف المناسب في حالة كهذه ؟

أما السؤال الهام الذي لا تجد له أي إجابة.

_ لماذا تفكر به الآن ؟

أعادها صوت والدها وهو يحاول إقناع الأستاذ جابر في كسب جولة جديدة من البوراكو، في محاولة منه لتعويض سلسلة الخسارات التي تعرض لها، معللاً ذلك بأنهم يسكنون في نفس المبنى، ولا مانع من بقائهم حتى الليل، إلا أن الأستاذ اعتذر منه وأخبره بأن لديه أعمالاً كثيرة عليه الانتهاء منها ..

٣

مُجددًا، غادرت أشعة شمس آذار غير اللاهبة، وانطفأت لرحيلها آخر الأنوار الحمراء القادمة من السماء، وحل مكانها الكثير من الظلام، والكثير من الصمت في الخارج، أما على سرير ضياء، فالأمر مُختلف تمامًا، حيث كان ضياء يحاول امتصاص غضب ندى، وعلى إثر ذلك جرى نقاش حاد بين الطرفين، صرخت ندى:

_ نعم، ولكنها شريرة وتستحق هذه العقوبة، ولا مجال للتساهل بمثل هذه الأمور، عذراً يا ضياء.

أشاحت بوجهها بعيداً عن أنظاره، وهي تضع يديها على عينيها، وتلجأ ندى إلى تغطية وجهها بكفيها عندما تكون مرتبكة ومُحرجة.

_ ولكن يا عزيزتي، تذكري بأنها ما زالت صغيرة، ولا تدرك عواقب تصرفاتها الطائشة، سوف تتجنب إثارة المشاكل في قادم الأيام، و ستعتذر من إيميلي وتسعى إلى التقرب منها، أعدك بذلك.

أعادت النظر إليه بوجه محتقن، وقد ضمت كفها بقوة معبرة بذلك عن حالة الغضب التي اجتاحتها، صرخت من جديد:

_ كلا، هي لا تحب أحداً، تحب نفسها فقط، وهي تدرك ما تفعل تماماً، وقد أخبرت الجميع بذلك، هل يعقل أن تضايق إيميلي وتريد إخراجها من السلة فقط لأنها لا تحبها ؟

ثم توقفت عن الكلام وأخذت تنظر إليها وتلتقط أنفاسها.

_ أنت لا تعرفها يا ضياء، دعني أخبرك بشيء هام، أنها تتقن الخداع وتستمتع بذلك، ولديها قدرة كبيرة على لعب جميع الأدوار في لحظة واحدة، هي هكذا دائماً، حسناً ... إن كان وجودها هنا يضايقك، فلا مانع لدي من إعادتها إلى غرفتي، ولكني لن أعيدها إلى السلة حتى تنتهي مدة العقوبة.

هز ضياء رأسه نافياً.

_ على العكس تماماً، لست متضايقاً من تواجدتها هنا، ولكن ...

ثم بحث عن كلمة مناسبة يتابع بها حديثه.

_ ولكن الأرض باردة، نعم، قد تصيبها بنوبة زكام، وهي ما زالت صغيرة، وجسدها لا يقوى على مقاومة المرض.

أخذت نفساً عميقاً وأخرجته بقوة في نفس اللحظة، هدأ عنها الغضب قليلاً، ثم اقتربت منه.

_ ألم أقل لك بأنك لا تعرفها يا ضياء.

حملت الدمية ووضعتها فوق المنضدة.

_ هكذا لن تشعر ببرودة الأرض، أليس كذلك ؟

ضحك ضياء كثيراً وأشار لها بابهامه موافقاً.

ثم أعادت الدمية إلى الأرض بعد أن تذكرت شيئاً.

_ ولكن لدي شرطين قبل الموافقة على وضعها على المنضدة.

توقف عن الضحك لثوان قليلة ليتسنى له سماع شروطها.

_ ماهي شروطك.

_ شرطي الأول هو الحصول على ثلاث قطع من هنا.

وأشارت إلى صندوق البسكويت الموضوع فوق الخزانة.

_ والثاني هو النوم هنا الليلة.

وما إن انتهت الطفلة من إملاء شروطها حتى غط في نوبة ضحك أخرى، أخرج لها ثلاث قطع من البسكويت وناولها إياها، حملت الدمية وألقته على المنضدة الكبيرة وسارعت إلى العودة نحوه، استلقت إلى جانبه وأغمضت عينيها وهي تغطي وجهها بكفيها وتضحك بشدة

كان ضياء يفكر في تلك الفتاة منذ عودته من الجامعة، وقد أخبر والده بأنه يشعر بقليل من التعب ويحتاج إلى الراحة، وبذلك لن يتمكن من الذهاب إلى المكتبة.

_ لابد من الحديث إلى تلك الفتاة مجدداً في الغد، فهي كانت تنظر إلي من حين إلى آخر، حتى أنها لم ترفضني أو توبخني، ولولا وجود تلك الفتاة المتطفلة إلى جوارها لكان من الممكن أن أتحدث إليها مرة أخرى، ومن يدري لعلها تبادلني تلك المشاعر، ولم لا.

توقف عند تلك الفكرة التي لاحت له بشكل مفاجئ.

_ هل يعقل بأنها تفكر بي الآن كما أفكر بها.

لم يجد جواباً لذلك، واضطر إلى تجاوز ذلك السؤال، ثم تابع تفكيره في الطريقة التي ستمكنه من الحديث إلى الفتاة مرة أخرى، ولكن بلا عوائق.

_ من المؤكد بأن تلك الحمقاء ستكون إلى جانبها في الحافلة صباحاً، وداخل الجامعة أيضاً، وبذلك لن أتمكن من الاقتراب منها.

استعان على ذلك بكمية لا بأس بها من السجائر، وبعد تفكير طويل توصل إلى نتيجة مفادها بأنه يستحيل الحديث إليها في الجامعة، وسيحصل ذلك خارجها ..

٤

أطلت برأسها من نافذتها الصغيرة صباحاً، واجتاحت الغرفة موجة من الصقيع أجبرتها على إعادة إغلاق النافذة ومتابعة المشهد من وراء البلور، كانت عيناها ذابلتين، وتعاني من آثار الاستيقاظ المبكر، وما أن زال تأثير أنوار الصباح المزعجة، حتى استطاعت أن ترى قطة تخرج من داخل كيس قمامة كبير، وتحمل في فمها قطعة كبيرة، ربما كانت قطعة لحم أو شيئاً من هذا القبيل، إلا أنها لم تتمكن من معرفة ماهيتها نتيجة لبعدها المسافة بينهما، ولاحظت وجود شخص يقف إلى جوار مدخل البناء الخارجي، وحركة غير اعتيادية للطيور الصغيرة بين أشجار الحديقة سيئة النمو.

كانت تملك كثيراً من الوقت في هذا الصباح، على عكس بقية الأيام، فقد حصلت على ليلة هادئة، خالية من الكوابيس والاستيقاظات المتكررة، واحتفالاً بذلك الحدث، اتفق محاربو المدينة على إجراء هدنة استمرت طوال الليل، أعادت كتاب " عيناك قدرتي " إلى الخزانة، وغادرت منزلها بعد أن تناولت فطوراً خفيفاً وودعت والدتها، ثم عبرت المدخل الطويل المؤدي إلى الشارع وهي تفكر في كلمات والدتها الأخيرة.

_ لا تتأخري في العودة إلى المنزل، فنحن مدعوون على الغداء في منزل الأستاذ جابر.

وما إن وصلت إلى الباب الخارجي حتى توقفت حركتها تماماً، كانت هناك رائحة عطر قوية تنتشر قرب الباب المؤدي إلى خارج المبنى، لم تحتج كثيراً من الوقت لتتعرف على ذلك العطر.

_ إنه عطر ذلك الشاب.

أرعبتها تلك الفكرة، ثم تذكرت ذلك الشخص الذي شاهدته من نافذتها يقف عند باب المدخل منذ قليل، لم تطل النظر إليه وهذا ما أفشل مساعيها في تذكر ملامحه، ولكن لم يخطر في ذهنها بأن يكون هو ذات الشاب الذي تحدث إليها في كافتيريا الجامعة بالأمس، جالت بعينيها في كل زاوية من زوايا البناء.

_ لا أحد.

اقتربت من الباب الخارجي بحذر شديد، لم تكن تملك الجرأة الكافية لتجاوزه، وأحست بأن هناك عالم مخيف ومرعب خلف دفتيه، سمعت صوت خطوات قادمة نحوها من جهة سلم البناء الداخلي، ركزت عينيها في نهاية الممر، وحبست أنفاسها.

_ صباح الخير يا نور، لماذا تقفين هكذا، هل تبحثين عن شيء؟؟

تنفست الصعداء عندما شاهدت كاتيا تخطو نحوها وخلفها سارة ومريم الصغيرة، ابتسمت لها وأجابت بتلعثم.

_ سقط مني عقدي وتناثرت حباته هنا بالأمس لدى عودتي من الجامعة، وقد قمت بجمع كل حباته باستثناء ثلاث حبات بحثت عنها في كل مكان ولم أجدها.

أصدرت القطة صوت مواء مطول وحركت ذيلها إلى اليسار، لاحظت سارة وجود عقدها الأحمر متكامل العدد حول عنقها، ولكنها غضت النظر.

_ لا تحزني يا عزيزتي، ولا تضيعي وقتك في البحث عنه، أخبرني كاتيا ومريم بأنهم سوف يجلبان لك عقد أجمل من عقدك.

نزلت نور إلى القطة ومسحت على رأسها، وقبلت الصغيرة مريم.

_ شكراً لك يا سارة، لا تتعبي نفسك في ذلك، فلدي عقد آخر.

_ ولكن كاتيا ستحزن إن رفضتي هديتها، ومريم لن تزورك بعد اليوم، سوف تكون الهدية بانتظارك اليوم.

ابتسمت وهزت لها برأسها.

غادرت سارة إلى مدرستها بعد أن أكدت عليها عدم تأخرها في الحضور إلى الغداء، واستلام الهدية، شجعها تواجد سارة في المكان على تجاوز الباب الخارجي إلى الحارة.

كانت تسير وتلتفت يمناً ويسرة وتراودها عدة تساؤلات ..

ماذا لو لم يكن هو ذات الشاب، إذ أن استخدام ذلك العطر متاح للجميع، وليس حكراً على أحد، تشكرت العم عبد الرحمن على سكاكره الصباحية وتابعت طريقها نحو موقف الحافلات، كانت تخيفها فكرة اقترابها من موقف الحافلات، وتظن بأن ذلك الشاب ينتظرها هناك، ومن الممكن أن يظهر لها داخل الحافلة أثناء وجود ريمما وهذا ما كانت تخشاه ...

_ مرحباً.

شعرت بنغزة في الجانب الأيسر من صدرها، وتوقفت عن الحركة كما لو أن الأرض تشبثت بقدميها، ولم تعد قادرة على تحريكها خطوة واحدة، إنها تعرف ذلك الصوت جيداً، استجمعت ما تبقى لها من قوة و التفتت نحوه.

_ أعتذر على ظهوري المفاجئ، لن آخذ من وقتك كثيراً، دقيقة واحدة فقط.

لم تنجدها الكلمات، وكلما حاولت أن تنطق بكلمة أسكتها شيء ما، عيناه تجيدان توجيه اللسعات، لاحظ ارتباكها وتلعثمها وحاول تدارك الموقف.

_ اسمي ضياء.

ضياء ... انطلقت صرخة من أعماقها.

_ دائماً ما كنت أشاهدك تجلسين في كافتيريا الجامعة ووددت كثيراً أن أتحدث إليك.

كانت تراقب طريقة حديثه الهادئة، كما لو أن الكلمات تعرض عليه ليختار ما يشاء منها، ولم تظهر على وجهه علامات الارتباك والتوتر التي ترافق أول لقاء عادة، لملمت شتاتها وأجابت:

_ حسناً، وماذا تريد ؟

ها هي أولى النتائج التي كان ينتظرها صوتها ..

هنالك تناسق مذهل بين نبرته الخجولة وحدته المُتصنعة.

_ أريد أن أخبرك بأني أحبك، لا أعلم كيف، ولماذا، ولا يهمني معرفة ذلك، كل ما أعرفه بأني أحبك، وأريد أن أخبرك أيضاً بأنك جميلة جداً، بل أجمل فتاة على الإطلاق، وهناك أشياء كثيرة أريد أن أخبرك بها، ولكن أخبريني أنتِ ... ما سر هذه الرجفة التي تعصف بي الآن وأنت تنظرين إلي، ولماذا أرى عينيك في كل مكان.

كل هذه الإجابات خطرت في ذهنه، ولكنه لم يستطع البوح بأى منها، فقد أحدث له صوتها نوع من شتات الذهن، وقد لاحظت ذلك، ولكنه سرعان ما استعاد توازنه.

_ لا شيء، لا أتقصد أحراجك، إن لم تمانعي نلتقي في الجامعة ونتحدث.

لم يكن يعلم كيف خرجت منه تلك الكلمة، لم يخطط لأن يتحدثا في الجامعة، ولكن ذلك حدث على أي حال، وعليه أن يتجهز للمعركة القادمة في الجامعة، وبدا أنه أكثر هدوءًا وتماسكًا مما توقع.

غادرت دون أن تنطق بشيء وهي تشاهده ينفث كمية كبيرة من دخان السيجارة، وكأن دوائر الدخان المتعرجة تخط لها أشياء لم يستطع البوح بها وهي تتصاعد إلى السماء، تابعت مسيرها نحو موقف الحافلات، فكرت فيما حصل معها منذ قليل هل هو حقيقة أم حُيْل لها ذلك، التفتت إلى الخلف حيث كان يقف ويكلمها تحت شجرة التوت الكبيرة.

_ لا أحد.

جالت ببصرها حول الأرصفة والسيارات والأبنية السكنية.

_ لقد غادر ...

٥

كانت القاعة الثانية ممتلئة بالطلاب، والجميع ينصت إلى كلمات الدكتور عصام، الذي دخل القاعة لتوه.

_ أنبه على ضرورة التركيز في المحاضرة والإصغاء جيداً لما سألقيه الآن.

طلب منهم إخراج مقرر اللغة العربية، وبدأ بالمحاضرة من دون مقدمات، كان الدكتور عصام متوسط الطول، يحمل بيده حقيبة من الجلد الأسود، ويرتدي نظارة تتوسط أنفه، وكان محبباً لدى جميع الطلبة، وذلك يرجع إلى معاملته الأبوية لهم، وقد خصص وقتاً في آخر المحاضرة للاستماع إلى مشاكلهم ومساعدتهم ضمن الإمكانيات المتاحة، وذلك ما يفسر التفافهم حوله وحبهم له.

أخذ يلقي على أسماعهم إحدى قصائد الشعر الجاهلي للشاعر العربي " عمرو بن ربيعة " والذي اشتهر بلقب " العاشق " لكثرة كتابته لقصائد الغزل، ويجيب عن أسئلة الطلبة حول بعض الكلمات المبهمة التي تتضمنها القصيدة .

لم تكن نور تشعر بما يجري حولها، رغم أنها تكن كل الاحترام للدكتور عصام، وتنتظر محاضراته طوال الأسبوع، إلا أنها بدت شاردة الذهن، ولا تعنيها كلمات القصيدة التي تذيب القلب كما همست لها أسماء، أما ربما فقد نفت ذلك وأكدت.

_ إن قصائد الغزل هي فخ أعده شعراء العصور القديمة للإيقاع بقلوب الفتيات، والأنثى طيبة بطبيعتها، تخدعها الكلمات المعسولة، ولسوء الحظ لايزال يستخدم هذا الفخ حتى يومنا هذا.

فكرت نور فيما جرى معها منذ قليل، كان ذلك الشاب أنيق المظهر، شعره أشقر وعيناه بنيتان، ويتمتع بطول فارع وقوام ممشوق، ويجيد اختيار عطره وملابسه.

فكرت في آخر ما قاله ضياء.

_ نلتقي في الجامعة ونتحدث.

ولكن كيف، ومتى ... لم تكن تعلم شيئاً من ذلك، وكانت تلتفت بشكل متكرر ظن منها أن ضياء في مكان ما بالقرب منها، ثم ارتسمت ابتسامة على وجهها وهي تتذكر كلماته أمامها.

لاحظ الجميع بأن الدكتور عصام قد انتهى من المحاضرة بشكل سريع ولم يستغرق في تفاصيلها على غير عادته، وأخذ يستمع إلى مشاكل الطلاب ووعده بمساعدتهم، وأخبره أحد الطلبة أنه يفضل التحدث إليه بشكل شخصي بعد انتهاء المحاضرة عن مشكلة يعاني منها، لم يمانع الدكتور وطلب منه زيارته في مكتبه، وعند انتهاء الطلاب من توجيه الأسئلة والاستفسارات، تحدث الدكتور عصام.

_ أبنائي، حاولت إنهاء المحاضرة بوقت قصير لأنني أريد أن أتحدث إليكم بموضوع هام، وقبل ذلك، أريد إخباركم بأني ترددت كثيراً قبل أن آخذ قرارى بهذا الشأن، ويعود ذلك إلى حساسية الأمر لدى الجميع، لذلك أريد القليل من الهدوء والتفكر في حديثي جيداً، وعدم التسرع.

توقف الجميع عن الأحاديث الجانبية، وتوجهت الأنظار نحوه، تابع حديثه بهدوء.

_ جميعنا يعلم بأمر الأحداث الأخيرة التي تعيشها البلاد، البعض منكم يسميها ثورة، او انتفاضة شعبية، والبعض الآخر يسميها مؤامرة، وسواء اتفقنا أم اختلفنا في ذلك، في النهاية الجميع متفقين على أن البلاد تمر بمنعطف خطير للغاية، وهذا يعيننا جميعاً.

أثارت كلماته الهادئة عاصفة من الأحاديث والهمسات فيما بين الطلاب، كان ذلك متوقفاً، ولكن الدكتور عصام سارع إلى تدارك الموقف.

_ هدوء، هدوء..

خيم الصمت على القاعة مجدداً.

_ من المفترض أننا نمثل الطبقة المثقفة في المجتمع، فالجامعة أنشأت لتخرج قادة المستقبل، أريد أن يكون حديثنا هنا هادفاً وأن

نخرج بأكبر فائدة ممكنة، لا أن يكون عراك وتبادل اتهامات كما يفعل الآخرون.

صمت للحظات وجال ببصره في الوجوه التي تحديق نحوه.

_ أطلب من الجميع إخراج ورقة وقلم، وكتابة رأيه الشخصي بالاحتجاجات الأخيرة، ولكم الحرية المطلقة بكتابة أي شيء تفكرون به، وأنتم غير مطالبين بتدوين أسمائكم حتى لا يقع البعض منكم بأي حرج، وأنا سأختار بعض الأوراق لأطلع الجميع عليها، سوف أمنحكم خمس دقائق فقط.

كان الأمر غريباً على الجميع، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض ويتبادلون الكلمات بصوت منخفض، تشجع أحدهم وأخرج ورقة وأخذ يكتب فيها، تشجعت فتاة إلى جانبه وشرعت بالكتابة، وهكذا تشجع الجميع و سارعوا إلى إخراج أقلامهم وكتابة ما طلب منهم، فيما كان البعض يراقب ما يجري ويتبادلون الضحكات، وعندما انتهت الدقائق الخمسة طلب الدكتور من أحد الطلاب جمع الأوراق وإحضارها.

كان الدكتور عصام يقرأ الأوراق، يتوقف عند بعضها ويضعها أمامه، أما باقي الأوراق فقد وضعها جانباً، وبعد أن انتهى من جميع الأوراق حمل بعضها وتحدث إليهم.

_ حسناً، هذه عينة من الأوراق التي اخترتها لكم، وهي تمثل جميع الآراء، سوف أتلو عليكم محتواها ...

فتح إحدى الأوراق وقرأ :

_ أود أن أشكرك على دقائق الحرية الخمسة التي منحتني إياها، شعوري الآن وأنا حر لا يقدر بثمن، أستطيع الآن كتابة ما أشاء دون خوف، ولكن للأسف ... لن يطل ذلك، سوف تمضي الدقائق الخمس ويذهب ذلك الشعور الجميل .. أنا الآن أناضل لأعيش ذلك الشعور طوال الوقت، وأن أستطيع تدوين اسمي على ورقة كهذه دون خوف.

ثم كتب في أسفل الورقة كلمة " ثورة "

لاقت كلمات الرسالة صدىً كبيراً بين جموع الطلبة، وتعالى الهمسات من كل مكان، وقبل أن تخرج الأمور عن السيطرة، حمل الدكتور ورقة ثانية وقرأ :

_ أن تكون حراً هذا لا يمنحك الحق في إيذاء الآخرين، والغاءهم، وتخريب الممتلكات العامة بحجة التعبير عن الرأي، ما نعيشه الآن هو هستيريا فكرية، وأزمة خطيرة قد تؤدي إلى شرخ كبير بين فئات المجتمع، خاصة مع انتشار الغوغائية والعبث بأفكار الشباب، وأود أن أخبركم بشيء.

" لسنا مؤهلين لأن نكون أحراراً بالمعنى الكامل، إذ أننا لا نتقبل وجود آراء مخالفة لنا، حتى وإن أنكرنا ذلك، نحتاج الكثير من الوقت لنعي معنى الحرية، وينقصنا الوعي الكافي لمواجهة مرحلة كهذه "

كتب في أسفل الورقة كلمة " مؤامرة "

وقف عدد من الطلاب وحاولوا الرد على محتوى الورقة، ولكن الدكتور عصام طلب منهم الهدوء، وبسرعة، حمل ورقة ثالثة وقرأ :

_ لم أفكر في يوم من الأيام بالاهتمام بالسياسة، ولا يمكنني الحديث بأي شأن سياسي، بل ولا أجيد التعبير عن رأيي عندما يُطلب مني ذلك، ولكني لا أستطيع التغاضي عن مشاهدة أبناء بلدي وهم يقتلون لمجرد أنهم يطالبون بحريتهم.

" ثورة "

عقب الدكتور عصام على تلك الورقة.

_ أوافقك الرأي، جميعنا لا نستطيع التغاضي عن ذلك.

انفجر المدرج بالتصفيق الحار لتعقيب الدكتور.

حمل ورقة أخرى وقرأ :

_ إن ما يجري الآن في بلادنا هو شباك دولي، وصراع بين قوى عالمية، ويجري هذا الصراع عندما تتضارب مصالحهم في دولة ما، فالسياسة تحكمها المصالح، لا العواطف كما يتحدثون في التلفاز، وعلينا أن نتذكر جيداً بأن الدول العظمى تبحث عن مصالحها بالدرجة الأولى، حتى وإن تطلب الأمر تدمير هذا البلد على رؤوس الجميع، الخاسر الوحيد في ذلك هو نحن أبناء البلد، هذا ما يحدث باختصار.

" مؤامرة "

ثم حمل ورقة أخرى وقرأ:

_ من حقي كإنسان أولاً أن أكون حراً، وأن أختار شكل الحياة التي أريد أن أعيشها، وهذا ما تقره جميع الشرائع والقوانين، لا أن تُفرض علي ثقافة وأفكار لا أنتمي لها، وعلي التعايش معها مرغماً، دون اعتراض، ما يحصل الآن هو ثورة شعبية يشارك فيها جميع أبناء الشعب لنيل حريتهم، وهناك أكثر من ألف سبب يصلح أي منها لأن يكون سبب في تفجر الثورة.

فالظلم والاستبداد سبب للثورة

والفساد سبب للثورة

وقمع الحريات سبب للثورة

أما عن الأخطاء التي يتحدث عنها البعض، فهي واردة، فالثورة يقودها بشر، وهم غير معصومين عن الأخطاء، والذي لا يخطئ، هو الذي لا يعمل.

" ثورة "

حمل ورقة أخرى أمامه وقرأ :

_ نعم، نحن نريد الإصلاح، ونحلم بوطن نحصل فيه على حقوقنا كاملة، ولكني لا أجد توصيف لشخص يدعو دول العالم لاحتلال بلده إلا أنه خائن، مهما كان السبب الذي يؤيد به دعوته تلك، وقد شاهدنا الجرائم التي ارتكبتها هذه الدول عندما تدخلت البلدان الأخرى.

الولاء أولاً وأخيراً للوطن، لا للأشخاص، فالجميع سيذهب، وسيبقى الوطن.

" مؤامرة "

أمسك آخر ورقة وقرأ.

_ ما هو رأيك " فكرت كثيراً في إجابة مناسبة على مثل هكذا سؤال، ولكن لم يخطر لي أي إجابة، حسناً، أريد أن أعيش حياة كريمة، أعامل فيها كإنسان، له حقوق يطالب بها ويحصل عليها،

وواجبات يؤديها، دون أن أتعرض لأية مضايقة، هكذا ببساطة شديدة.

" ثورة "

ثم رفع إحدى الأوراق التي وضعها جانباً، ووجهها نحو الطلاب.

_ هذه الورقة فارغة، وهناك أوراق أخرى مشابهة لها، أوجه حديثي الآن إلى أصحاب هذه الأوراق، أنا أعلم جيداً بأن أوراقكم ليست فارغة، وفيها الكثير والكثير من الكلام.

ثم وجه الدكتور حديثه للجميع:

_ أردت من خلال هذه الفكرة أن نتبادل الآراء، وأن نستمع إلى آراء بعضنا البعض، فالاستماع إلى وجهة النظر المخالفة هو جزء أساسي من الحل، لا يخيفني الشخص الذي يخالفني الرأي، ما يخيفني حقاً، هو الشخص الذي يسير مع التيار، بلا وجهة محددة، ولا يكثرث بالنتائج المترتبة على ذلك، إني سعيد جداً بالاستماع إلى آرائكم، أعلم جيداً بأنكم تسعون إلى مستقبل أفضل، ما أريده منكم هو أن تبتعدوا عن التعصب والحقد، فإن الحقد يُعمي الأبصار، ولا يمكنك أن ترى الأشياء على حقيقتها، ولن تتمكن من الدفاع عن قضية وأنت حاقد، حتى وإن كانت قضيتك مُحقة، وبالتالي ستُصبح عبءاً على قضيتك، حافظوا على أنفسكم، فهناك من يسعى إلى استغلال اندفاعكم للإضرار بكم وبهذا البلد..

وتذكروا جيداً " الوعي قبل الانتماء، الانتماء بلا وعي .. مهلكة " تشكرهم على حسن الاستماع، ثم خرج وحوله عدد من الطلاب، ارتفعت الأصوات بالأحاديث عقب خروج الدكتور عصام، وغادر القاعة عدد كبير من الطلاب، فيما انشغل قسم آخر في استغلال الوقت المتبقي قبل بدء المحاضرة الثالثة في إجراء المكالمات الهاتفية.

طُرق باب القاعة ودخلت الدكتورة فردوس، وكانت القاعة تسيطر عليها حالة من الفوضى، لم تنتظر كثيراً.

_ بدل أن تستغلوا الوقت وتراجعوا مقرراتكم، تضيعونه في أحاديث تافهة، هيا .. عودوا إلى مقاعدكم الآن.

نظر الجميع إليها بغضب، وهي تتحدث بصوت مرتفع وتوجه الأوامر هنا وهناك، لم يحتمل بعض الطلبة حديثها فتجروأوا وطلبوا منها مغادرة القاعة، لم تمنعهم من ذلك وتمنت بأن يغادروا الجامعة إلى غير رجعة، فكنس الشوارع ولملمة القمامة من الآن أفضل لهم من شغل مقاعد الجامعة لبعض الوقت ثم مغادرتها إلى التسكع في الطرقات، ثم توجهت في كلامها إلى المتواجدين.

_ من لم يجلب مقرر مادة "اللغة الانكليزية " فليفضل إلى الخارج.

أشارت ربما إلى نور وأسماء بالمغادرة، والتحق الثلاثة بمجموعة كبيرة غادرت القاعة، ولم يتبق داخل القاعة سوى عدد محدود من الطلاب، وما إن تجاوزوا باب القاعة الخشبي حتى أخرجوا مقررات اللغة الإنكليزية، مؤكدين بأن أسلوبها هو من دفعهم للخروج، أما هي فقد كانت تراقب كل ذلك متوعدة إياهم بأنها سوف تحاسبهم حساباً شديداً، لمحت عن طبيعة ذلك الحساب مبتسمة.

_ حسناً، اقترب الامتحان.

جلست نور رفقة أسماء في الكافتيريا، بينما ذهبت ربما لتجلب لهم الشاي والقهوة، كانت الكافتيريا تعج بالطلبة وأصوات الهمسات والمحادثات.

_ نور، هل تبحثين عن أحد ما ؟

استفسرت أسماء عن سبب التفاتها المتكرر في كل زوايا الكافتيريا، نفت نور ذلك، وبدت مرتبكة بعض الشيء، لم يكن ذلك يخفى على صديقتها منذ الصباح، إلا أنهما فضلتا عدم إحراجها، عادت ربما وهي تحمل المشروبات الساخنة، وتحدثت:

_ أخبريني يا أسماء، متى سيعود والدك من الخارج ؟

_ بحسب التقديرات، فإنه سيعود قبل موعد الامتحان بعشرة أيام.

ثم أطرقت قليلاً.

_ ولكنه أخبرنا بأن نستعد للسفر معه.

تفاجأت الفتاتان بذلك الخبر ووجهها لها السؤال نفسه.

_ ماذا ؟

_ لم أكن أود الحديث بذلك الأمر، ولكنها الحقيقة، والذي يردد لنا دائماً بأن البلد مقبلة على حرب مجنونة، وبأنه يعمل على الانتهاء من بعض الأوراق اللازمة حتى نتمكن من الإقامة معه في الخارج، وأخبرنا بأنها ستكون جاهزة أواخر الشهر السابع.

اقترب منهم أحد الصبيان، وكان يحمل بيده صندوقاً بلاستيكياً يحتوي على ثلاث قطع من البسكويت، وضع الصندوق على الطاولة ونظر إلى نور.

_ ما رأيكم في ثلاث قطع من البسكويت، لم يتبق لدي سواها، وهي مطابقة لعددكم.

حمل إحداها وشجعهم.

_ إنها لذيذة جداً إلى جانب الشاي.

_ نعم.

أجابت نور وهي تخرج من حقيبتها عملة ورقية من فئة الخمسون ليرة.

_ والآن بإمكانك العودة إلى المنزل.

ابتسم الفتى ابتسامة كبيرة، وأجاب:

_ ليس قبل الجلوس لبعض الوقت، فأنا مرهق وأحتاج لبعض الراحة.

ثم سحب مقعداً فارغاً وجلس إلى جانب نور، وأمسك بالمقرر الخاص بها وأخذ ينظر إليه ويقراً ما في داخله، ابتسمت نور وسألته:

_ هل تجيد القراءة.

هز رأسه إلى الأسفل دون أن ينظر إليها، بينما كانت أسماء تتابع حديثها.

_ لقد أخبرته بأني أريد متابعة دراستي هنا، ولا أرغب في مغادرة البلد، ولكنه رفض ذلك وأجابني بأنه يمكنني متابعة دراستي هناك في الخارج، أما مسألة البقاء هنا فقد حسمت ولا مجال للحديث فيها.

أجابت ريما:

_ ولكن الأمور ليست بذلك السوء الذي يتحدث عنه والدك.

أطلقت أسماء تنهيدة طويلة وهزت رأسها للأسفل.

_ لم يصدقني عندما أخبرته بذلك، إنه يتابع النشرات الإخبارية لحظة بلحظة، ومع كل خبر تتناقله تلك القنوات يسارع إلى الاتصال بنا، وفي غالب الأحيان، يكتشف بأن تلك الأخبار لا أساس لها من الصحة، أو أن يكون هناك مبالغت كبيرة في نقل الخبر.

مرت عدة دقائق على ذلك الحال، حمل الطفل صندوقه وتشكرهم على سماحهم له بالجلوس إلى جانبهم، وقبل انصرافه أعاد المقرر إلى نور، وبعيداً عن أنظار ريما وأسماء، أشار لها الفتى بحركة سريعة ليلفت انتباهها لشيء ما وضعه داخل المقرر، استغربت نور وبحثت بين صفحات المقرر، ولكنها لم تجد شيئاً، ابتسمت له ظناً منها بأن الفتى يمازحها، ولكنه لم يبادلها الابتسام وأشار لها بأن تعيد البحث جيداً وغادر المكان، أعادت البحث بين صفحات المقرر من جديد، وجدت ورقة صغيرة في أسفل إحدى الصفحات، فتحتها وقرأت.

_ انتظرك عند باب القاعة الرابعة ضياء.

٦

_ كلا، سوف تأتي.

أكد ضياء ذلك لنفسه وهو يقف إلى جوار مدخل القاعة الرابعة،
يتربقب قدومها، تذكر ذلك الطفل وفكر في مصير الرسالة الصغيرة
التي حمله إياها، فالطفل لم يوضح له كيفية إيصالها، بل اكتفى
بإجابة مختصرة.

_ حسناً، لا تهتم لذلك، تربقب قدومها هنا.

_ ماذا لو أنها لم تهتم لأمر تلك الرسالة، ومن الممكن أنها ألقّت
بها إلى الأرض و.....

توقف عن التفكير في ذلك تماماً عندما رآها تخطو نحو المبنى
الثاني بهدوء شديد، لقد نجح ذلك الطفل في مهمته، وشعر بامتنان
كبير تجاهه.

تبادلا التحية دون الحاجة إلى إعلان ذلك.

_ هناك لغة تنشأ مع كل علاقة جديدة، يضع أبجديتها طرفي تلك
العلاقة ولا يتحدث بها سواهم، لا يحتاج أحدهم إلى الكثير من
الكلام للتعبير عما يريد قوله، بل يكفي بنظرة واحدة لإيصال كل
شيء، فهناك أحاديث كثيرة تتناقلها النظرات، وعلى الرغم من أنها
لغة قليلة الكلام، إلا أنها أبلغ من أي لغة تحدث بها البشر ...

_ كنت متأكداً من حضورك إلى هنا.

أخفضت رأسها وتوردت وجنتاها بحمرة الخجل، وكانت يداها تمزقان بعضهما البعض، أما عيناها فقد كانتا تفر من نظراته الحادة.

_ حياء الفتاة يغنيها عن استخدام الكثير من مساحيق التجميل، و يحيطها بهالة جذابة يعشقها جميع الرجال.
لم يتلقَ منها أية إجابة، تابع.

_ أدرس في كلية الاقتصاد، وأعمل في المكتبة الشعبية التي يملكها والدي.

يبدوا أنها فضلت الاستماع إليه حتى النهاية، أو أنها فقدت القدرة على الكلام.
_ نور.

انبثق وميض ساطع من عينيها، وفتحت فمها معبرة بذلك عن دهشتها، وفي اللاشعور تحدثت:
_ كيف عرفت اسمي ؟

ابتسم ضياء، فقد نجح اليوم للمرة الثانية في سماع صوتها، كافأ نفسه بسيجارة على هذا الانتصار العظيم، أما هي فأحست بسذاجة سؤالها.

_ سأكون صريحاً، في البداية كنت أراقبك طوال الوقت عندما كنت تجلسين بصحبة صديقاتك في كافيتريا الجامعة، وقد أحببت

التحدث إليك سابقاً ولكني لم أكن أود الظهور بصورة الشاب المتطفل.

صمت لثوانٍ قليلة، وتذكرت ذلك اليوم، عندما اقترب منها ضياء وأصبح على بعد خطوتين منها، تابع حديثه:

_ شيء ما خارج عن إرادتي حال دون ذلك، أما الآن فلم أعد أهتم لذلك على الإطلاق، ما يهمني هو شيء واحد.

ثم وجه نظره حادة إلى عينيها، وتحدث بصوت منخفض.

_ أنتِ يا نور.

لم تصحُ بعد من اللكمات التي وجهت إلى قلبها، ولأول مرة، لم تشعر بالخوف، أرادت أن تخبره بأنها كانت تراقب نظراته دون أن تشعره بذلك، ولكنها فضلت الصمت.

يستخدم الإنسان أسلحة كثيرة إذا ما أراد الكذب، ينطلق لسانه بكلام جميل ليوهمك بأن ما يقوله هو الحقيقة، ويغلف كلامه ببعض الارتباك ليخرج لك المشهد بأفضل صورة ممكنة، أما عيناه فلا تجيدان الكذب مهما حاول إشراكهما في هذه الجريمة.

فكرت في ذلك وهي تنظر إلى صورتها المنطبعة على محجر عينيهِ، أحس بضرورة تدارك الموقف بعد أن لاحظ توترها.

_ لا أود مضايقتك يا نور، فقط أريد أن أكون قريباً منك.

أفلتت منها ابتسامة لثانية واحدة، مشابهة لتلك الابتسامة التي ظهرت بشكل مفاجئ أثناء استماعها لحديث الدكتور عصام، كانت هذه الابتسامة كافية لأن تجعل منه أسعد رجل على هذه الأرض، انتظر هذه اللحظة منذ وقت طويل، كان يضطر للجلوس في الكافتيريا لوقت طويل حتى يرى تلك الابتسامة أثناء حديثها إلى صديقاتها، أما الآن.

فهذه الابتسامة قد خصصت له ...

_ نعم نعم، لقد ابتسمت لي.

صرخ مجدداً ذلك الصوت من أعماقه وتسبب له ببعض التشتت، أعطاهها قصاصة ورقية تحتوي على رقم هاتفه، و ضغطت بكلتا يديها على حقيبتها وسارعت إلى المغادرة، وعندما مرت بجانبه استنشقت ذلك العطر مجدداً بعد أن كان الهواء يذهب به بعيداً عنها، سارت بخطوات متسارعة وهي تلتفت نحوه باستمرار، وقد نشبت حرب ضروس في أعماقها، إن كان ما فعلته الآن هو خطأ يجب تداركه وتجنب الوقوع فيه من جديد، أو أن الذي فعلته هو الصواب.

وقبل أن تغادر المبنى، منحته ابتسامة ثانية، حينها فقط، أدركت بأنه لم يعد بالإمكان تدارك أي شيء ...

٧

_ القلب ينبض بطريقة مُنتظمة إلى أن يُحب .. "

_ عبارة نُقشت على مقعد خشبي في إحدى حدائق دير الزور القديمة.

يتحول القلب حينها من مُجرد عضلة تنبض و تُضخ الدم، إلى آلة موسيقية تبت أجمل الألحان، ومرآة لكل ما هو جميل، فالحب يحيي القلوب ويبعثها من جديد .

جلس ضياء خلف منضدته في مكتبة والده الشعبية، يبتسم لزبائنه على غير العادة، بل ويناقشهم حول مُشترياتهم، وكان يقبل بين صفحات الدواوين الشعرية في الأوقات التي تكون فيها المكتبة خالية من الزبائن، لم يجد في جميع قصائد أباطرة الحب والغزل التي قرأها ما يصف شعوره الآن، وأحس بحاجة شديدة لرؤية نور مرة أخرى، ولسماع صوتها الذي لم يغادر مسامعه، راوده إحساس بأنها ستدخل إلى مكتبته بشكل مفاجئ وبلا مقدمات، وكان يراقب شاشة هاتفه من حين إلى آخر، عليها تحصل معجزة ما وينطق باتصال منها، ولكن ذلك لم يحصل حتى اللحظة، وخلال هذه الساعات القليلة التي قضاها في المكتبة، رآها وهي تضم يدها إلى يده، ويسير كلاهما في طريق فُرش بالورود والرياحين، تتحدث إليه دون أن تفر عينها من نظراته، و يحدثها بكلمات الغزل التي قرأها منذ قليل، تبتسم له، فيضيء العالم ..

سمع صوت رنين الهاتف، إنها النغمة الخاصة بالرسائل، لم يكن هناك اسم للمرسل كما العادة، بل ارتسم رقم غريب في أعلى الشاشة، سارع إلى فتح الرسالة والتحقق من الأمر، قرأ كلمة واحدة فقط.

_ مرحباً

وصلت للتور رسالة أخرى، قرأها بسرعة

_ أنا نور.

كاد الهاتف أن يسقط من يده، وشعر بأن صخرة بحجم السماء قد أُلقيت في مياهه الراكدة، كتب لها:

_ كيف حالك يا نور.

وقبل أن يضغط على زر الإرسال، عاد ومسح الرسالة، ثم ضغط على زر الاتصال، مرت لحظات ترقب وتوتر قبل أن يُفتح الخط على الطرف الآخر، تحدث ضياء:

_ كُنت على ثقة بأنك ستحدثيني الليلة.

أجابت:

_ ترددت كثيراً قبل أن أرسل لك رسالتي، ولكن، وما سر هذه الثقة التي تتحدث عنها.

_ ابتسامتك الأخيرة، هي من أخبرتني بذلك.

- صمت على الطرف الآخر للحظات، ثم صوت مرتبك.
- _ إذآ، من الأفضل أن لا أبتسم لك بعد الآن، فابتسامتي تُخبرك بأشياء لا أريد البوح بها.
- ضحكت نور، وأحدثت ضحكتها زلزال مُدمر على الطرف الآخر.
- _ نور، أريد أن أراكِ الآن.
- _ ماذا ؟ كيف ؟ هذا مُستحيل.
- كان ضياء قد بدأ بإغلاق المكتبة، ولملة أشياءه المبعثرة، وقبل أن يغادر المكتبة تحدث إليها.
- _ انتظريني ..
- _ ضياء، لا يمكنني أن أراكِ الآن، ألو، هل تسمعي .. أغلق الخط.
- حاولت مُعاودة الاتصال به مجدداً، ولكنه لم يُجب، تسبب لها ذلك بارتباك شديد.
- _ هذا جنون، كيف له أن يُفكر بذلك حتى.
- مرت الدقائق سريعاً، كانت نور تتنقل في زاويا الغرفة وهي تحدث نفسها، فاجأها اتصال من ضياء، سارعت في الرد.
- _ ضياء، ما تقوم به هو جنون، هل تسمعي؟
- أجابها:
- _ حسناً، ها أنا الآن أنظر إلى نافذتك، ولا أرى أحداً.

_ ماذا، أين أنت؟

أسرعت إلى النافذة وجالت ببصرها حول المكان، إنه هناك، يقف خلف سيارة بيضاء ويلوح لها، أشار لها إلى الهاتف، وتحدث:

_ أعلم أن حضوري إلى هنا كان مفاجئاً، ولكنني اشتقت لك كثيراً يا نور.

ضحكت، ونظرت إلى الأعلى، أحست بأن لها جناحين تحلق بهما بين الغيوم المتجمعة في الأعلى.

_ وأنا أيضاً.

_ أحبك يا نور.

وضعت يدها على صدرها، وفرت إلى داخل غرفتها، تسارعت أنفاسها بطريقة غريبة، وقفت أمام المرأة، كانت تنظر إلى نفسها وهي تبتسم، لقد تبدلت ملامحها، وبدت أكثر جمالاً وجاذبية.

كانت ماريا تراقب كل ذلك ولا تجد تفسيراً لما يجري حولها، يبدو أن نور منشغلة بشيء ما، فهي لم تتحدث إليها اليوم، بل ولم تقترب من كاتيا ومريم عندما ذهب الجميع إلى منزل الأستاذ جابر.

_ ما الذي يجري؟

إنها تتصرف بطريقة غريبة، لم تقرأ الروايات كما تفعل عادة، بل تقف أمام المرأة طويلاً، تسرح شعرها، وتضع العطور، وتظهر على وجهها ابتسامات مفاجئة لا معنى لها، أما الأكثر غرابة، فهو تحدثها

من خلال الهاتف بصوت منخفض، بعيداً عن مسامعها، وهذا يحدث لأول مرة، يبدو أن نور تُخفي شيء ما، وهذا ما يخيفها، ها هي تجلس على المنضدة، تضع وردة وقلم إلى جانبها استعداداً للكتابة ..

_ الحب إصبار مدمر لا يطرق الأبواب، بل يخلعها ويحطمها، ويجتاح كل شيء يعترضه ..

كُنت أظن باني أحجية معقدة، وسر غامض لا يمكن اكتشافه بسهولة، لم يُخيل لي يوماً ما أن أُغرم بأحدهم بهذه السرعة، على الرغم من إدراكي بأن الزمن يُغير من طباع البشر في بعض الأوقات، فلا يمكن مقارنة ساعات الحب بغيرها من الساعات، فهي تمضي سريعاً دون أن نشعر بها.

_ أحبك يا ضياء.

كانت تلك آخر الكلمات التي كتبتها نور قبل أن تغط في نوم عميق ..

ارتفع قرص الشمس من جديد، واستيقظت نور وارتدت ملابسها، لا بد أن ضياء ينتظرها الآن تحت شجرة التين التي شهدت لقاءهم الأول، غادرت المنزل سريعاً بعد أن وصلت رسالة منه تحثها على عدم التأخير، وعندما وصلت إلى دكان العم عبد الرحمن، طالبتة بقطعتي السكاكر، أبدا استغرابه من طلبها، وأخبرها بأن القطعة الثانية تحصل عليها لدى عودتها من عادة، أجابته:

_ من الآن وصاعداً، سأحصل عليها في الصباح.
تابعت طريقها، كان يقف بانتظارها، يحمل بيده وردة حمراء،
اقترب منها.

_ صباح الخير يا نور.

قدم لها الوردة الحمراء، وكانت سعيدة جداً بها، أخبرته بأنها تُحب
الورد كثيراً، وأكد لها بأنه سيهديها وردة عند كل لقاء، استمر لقائه
عدة دقائق إضافية، أسمعها بعض كلمات الحب والغزل حتى
طلبت منه أن يتوقف عن ذلك، بعد أن شعرت بخجل شديد،
ولكنه لم ينصت لها، استمر في ذلك، عندها تركته وفرت من كلماته
نحو موقف الحافلات، لحق بها، وتابعا طريقهما إلى الجامعة
سويًا..

الفصل الثالث

١

شهران مرا على المدينة، تصاعدت فيها حدة الاحتجاجات الشعبية التي أصبحت أكثر زخمًا وقوة، على الرغم من الضغط الكبير الذي يتعرض له المحتجون، فقد زاد الثوار من إصرارهم وتحديهم في المحافظة على ثورتهم من البطش بها، وزادت القبضة الحديدية والقوة المفرطة التي تواجههم بها أجهزة الأمن، وكانت مرحلة كسر عظم لكلا للطرفين، أما الحدث الهام الذي سيطر على المشهد في هذه المرحلة هو " الاعتقالات " فقد كانت تدخل إلى أحياء المدينة قوافل من سيارات رباعية الدفع محملة برجال مدججين بالأسلحة، يثيرون الخوف و الرعب طوال فترة وجودهم، ويملأون المكان صراخاً وشتائمًا، و يقومون باقتياد الشبان من منازلهم بطريقة غير إنسانية، عبر الضرب والتنكيل، ورداً على ذلك، وكما كان متوقعاً، ارتفعت حدة المعارك المسائية انتقاماً للشهداء وللمعتقلين، وأصبحت حدثاً روتينياً يجري كل يوم بعد مغيب الشمس، وما إن ينبلج الصباح حتى يسارع سكان المدينة إلى الخروج من منازلهم ومتابعة أعمالهم والانتهاه منها سريعاً قبل حلول المساء.

وفي المحصلة، كثرت جلسات العزاء، وانتشرت مواكب تشييع الشهداء وما يرافقها من احتجاجات عارمة في معظم شوارع المدينة، وتضاعف عمل موظفي البلدية في طلاء الجدران التي

كتب عليها المحتجون شعاراتهم الثورية، وشاهد البعض رجالاً يحملون أسلحة حربية و يتجولون في وضح النهار، ولم يبذلوا جهداً كبيراً في إخفائها، وبدا أن المدينة مقبلة على حرب ستحرق جميع من فيها

تكررت لقاءات ضياء ونور في الجامعة، وعند شجرة التوت التي شهدت لقاءهم الأول بالقرب من موقف الحافلات، والتي أصبحت فيما بعد مكانهم المفضل الذي يلجؤون إليه قبل توجههم إلى الجامعة، كان ضياء يقطف لها وردة جورية من المنازل المجاورة ليهدئها إياها كل صباح، ويحرص على أن تكون الوردة حمراء ..

تعرفت إلى ندى الصغيرة، وأحببتها، رأيتها لمرة واحدة، حاولت نور فيها التقرب منها بشتى الوسائل، إلا أن الطفلة أبدت ردة فعل غريبة، فلم يرق لها وجود تلك الفتاة، ورفضت طلب ضياء عدة مرات في مرافقته لرؤيتها من جديد، أما في العالم الموازي، فقد تعرفت ماريا إلى إيميلي، وسرعان ما نشأت بينهما صداقة قوية

" البشر يتنافرون .. ولكن الدمى تتقارب "

أما عن ريماء فقد كان تواجد ضياء إلى جانب نور يستفزها كثيراً، وأزعجتها فكرة اقتراب ذلك الشاب من صديقتها، وسرعان ما أعلنت الحرب على تلك العلاقة في أيامها الأولى، وحاولت إقناع

نور بالابتعاد عنه، وأخبرتها بأن الرجال كاذبون لا أمان لهم، ولكنها فشلت في ذلك، نتيجة تعلق نور بضياء، وحبها الشديد له، ومع مرور الوقت توصلت إلى نتيجة مفادها بأن ضياء شاب جيد، وبأنه لا يعيب بمشاعر صديقتها، أعلنت إيقاف حملتها لوأد تلك العلاقة، مع تحذير أخير وجهته لضياء بأنها ليست بعيدة عن مسرح الأحداث، أما أسماء، فلم تعارض الأمر بل شجعتها على الاستمرار في هذه العلاقة حتى النهاية ..

دخلت إلى عالمه سريعاً، وأدمنت تفاصيله التي كانت تكتشف شيئاً منها عند كل لقاء، وعلى الرغم من أن شخصية ضياء الصدامية كانت إلى حد ما بعيدة عن شخصيتها الهادئة، إلا أنها وجدت مؤخراً عدة قواسم مشتركة تجمع بينهما، فهو يجيد اللغة الإنكليزية ويفضلها على الفرنسية، ولونه المفضل هو اللون الأزرق، ويجب القبط والليل والسفر ويكره القهوة.

وعلى اعتبار بأن ضياء يهتم بالرياضة عامة، وبكرة القدم بشكل خاص، فقد اضطرت إلى متابعة بعض الأخبار الرياضية المتعلقة بكرة القدم، حتى يتسنى لها مشاركته في اهتماماته، ساعدها على ذلك أن والدها لاعب كرة قدم سابق، وهو يتابع المباريات بصورة كثيفة، وكان يجيب على أسئلتها حول أسماء الفرق وبعض الهادفين، وبعد أن قطعت شوطاً كبيراً في ذلك، قررت المشاركة في أول حديث رياضي.

أخبرته بأنها تابعت مباراة فريقها المفضل " ريال مدريد " الأخيرة مع فريق " البرازيل "، وبأنها استمتعت كثيراً بالهدف الجميل الذي سجله لاعب ريال مدريد " الهداف ميسي "، وأخبرته أيضاً بأنها تتابع أخبار المنتخب السوري لحظة بلحظة، فهو يمثل البلاد، ويتوجب على الجميع مؤازرته، وأبدت له إعجابها الشديد بهداف المنتخب الأول " كريستيانو رونالدو "

جرت الأمور بصورة طبيعية حتى ليلة البارحة ..

الأحد ١٥ أيار/ مايو

السابعة والنصف صباحاً.

غيوم متفرقة تحجب أشعة الشمس، مع بعض النسيمات التي تشتد من حين إلى آخر، طقس لطيف، و مثالي جداً للقيام بنزهة ماء، في يوم كهذا يفضل ضياء الذهاب مع أصدقائه في رحلة إلى نهر الفرات لصيد الأسماك وكسب عدة جولات من البوراكو على ضفة النهر، أو ركوب دراجته النارية والذهاب إلى ضواحي المدينة، حيث الشوارع العريضة و الممتدة طويلاً، والتي تمكنه هو ورفاقه من قيادة الدراجات النارية بسرعة كبيرة والتنافس فيما بينهم على مهارات القيادة، أما الآن فهو يقف تحت شجرة التوت، والتي بدأت بوادر الحياة تنبعث على أغصانها، يحمل وردة جورية، و ينتظر وصولها الذي تأخر على غير العادة، ويفكر في آخر اتصال جرى بينهما ليلة أمس، والذي انتهى بصورة غامضة ..

جرت الأمور على ما يرام كأى اتصال حصل بينهما في الأيام السابقة، كانت تسأله عن عناوين الكتب والروايات التي ضمتها مكتبتهم حديثاً، وطلبت منه إحضار رواية " ليل الغرباء " للكاتبة السورية غادة السمان، وأخذت تحدثه عن إعجابها الشديد بأسلوبها الروائي، وقرأت له بعض الاقتباسات التي احتفظت بها أثناء قراءتها لبعض رواياتها، وأخبرته بأنها تطمح إلى قراءة جميع أعمالها الأدبية، وعدها بذلك، وأخبرها بأنه سيبحث لها بين تلال

الكتب عن جميع أعمال الكاتبة، وعلى اعتبار أنه لا يهتم كثيراً بالكتب، حاول تغيير مجرى الحديث، و سألتها عن والدها الذي أوصلها البارحة إلى الجامعة بسيارته.

_ رأيته كثيراً وهو يوصلك إلى الجامعة، ولكن البارحة كنت قريباً من مكان توقف السيارة، وهذا ما أمكنني من رؤيته عن قرب.

_ نعم، لاحظت ذلك.

أجابت نور وهي تضحك، وتابعت:

_ كنت تقف في منتصف الطريق رفقة أصدقائك، وكادت السيارة أن تصدم أحدكم، وهذا ما دفع والدي لإطلاق العنان لبوق السيارة وتوجيه بعض الشتائم.

وبعد نوبة من الضحك تحدث ضياء:

_ هذا ما أردت التحدث بشأنه، إنه على النقيض منك تماماً يا نور، فأنت هادئة جداً وقليلة الغضب، أليس كذلك ؟

أعقب ذلك صمت للحظات، ثم أجابت نور بصوت يعاني من بعض التوتر:

_ نعم، هذا .. هذا صحيح.

أحس ضياء بتغير نبرة صوتها، تابع كلامه

_ ولاحظت شيئاً آخر لا يوجد شبه بينكما.

عاد ذلك الصمت مجدداً.

_ نور، هل تسمعيني ؟

_ نعم أسمعك.

قالت ذلك بصوت مبجوح، تلا ذلك صوت بكاء.

_ نور، ماذا حدث؟

انتهت المكالمة.

قضى ليلته وهو يحاول تذكر آخر الكلمات التي تبادلها معها، ووضع الفرضيات حول بكاء نور المفاجئ، ولكنه لم يتوصل إلى أي نتيجة، رآها تقترب من بعيد، بخطوات متأنية وهادئة، لم ينتظر كثيراً قبل أن يتوجه نحوها.

_ نور ..

أراد الاستفسار عن كل شيء دفعة واحدة، ولكن هيئتها المخيفة جعلته يترث بعض الشيء، كان وجهها محتقناً وعيناها ذابلتين، وهالة من البؤس تسيطر عليها، مرت لحظات صمت لم يخرقها سوى صوت هبوب الريح وتطاير أوراق الأشجار من حولهم.

_ ما الذي حدث، لماذا أغلقت الهاتف بالأمس.

حاولت الإجابة، ولكن الكلمات لم تسعفها، أمسكت بحقيبتها الصغيرة وأخرجت له قطعة دائرية الشكل من الكريستال محاطة بإطار نحاسي ويتدلى من أعلاها شريط أسود اللون مائل إلى اليسار، تفاجأ ضياءً بذلك.

_ ما هذا ؟

كان ينظر إلى رجل في العقد الثالث من عمره، عيناه مشابھتان لعيني نور في كل تفاصيلها، وإلى جانبه امرأة تحمل بيدها طفلاً صغيراً، ويقف بينهما طفل آخر، وجميع يعرض ابتسامة لطيفة لكل من اقترب من لوحتهم.

وقبل أن يرفع رأسه ليسألها عن هؤلاء الأشخاص، تكلمت بصوت لم يكن يشابه صوتها الذي يعرفه.

_ هذه عائلتي، أبي وأمي وأخي، أما الطفلة التي تحملها والدتي فهذه أنا.

توقف هبوب الريح قليلاً وهدأت الأصوات، لم يكن هذا الرجل الموجود في الصورة يشبه ذلك الرجل الذي يراه بصحبتها على باب الجامعة، ولكنه فضل الاستماع إليها حتى النهاية.

_ لقد ماتوا.

ابتسمت بمرارة لثانية وأخذت تبكي بشدة، أمسك اللوحة بإحكام بعد أن صعقته كلمات نور، استعاد توازنه مجدداً وحاول استيعاب ذلك.

_ ماذا ؟

أخرجت منديلاً آخر من جيبها ومسحت دموعها، وتنهدت تنهيدة طويلة قبل أن تتابع حديثها ..

_ كنت في السابعة من عمري عندما حدث ذلك، أراد والدي السفر إلى مدينة اللاذقية لعقد إحدى صفقاته التجارية، حينها قرر اصطحابنا معه لقضاء عدة أيام في منزل صديقه المقابل للبحر، وكان العم يوسف وزوجته يهتمون بي كثيراً على اعتبار أنهم لم يرزقوا بطفل، طلب من والدي إبقائي إلى جانب زوجته أمينة فوافق على الفور، وفي ذلك اليوم، كانت سيارة والدي تقف أمام باب المنزل في الصباح الباكر، لم يلحظ أحد منهم وجودي حين لوح لهم بيدي من نافذة المطبخ، وكنت أفعل ذلك كلما تحركت سيارة والدي من أمام باب المنزل.

وضعت يدها على فمها وكأنها تحاول كبت صرخة كادت أن تنفجر وتغير معالم المكان.

_ لم أكن أعلم حينها بأنها ستكون المرة الأخيرة التي أراهم فيها، انطلقت السيارة إلى العالم الآخر بسرعة كبيرة، بلا عودة، وماهي

إلا ثلاث ساعات حتى تلقينا اتصالاً من إحدى المستشفيات،
يطالبنا المتحدث بالحضور على وجه السرعة.

صمتت لعدة لحظات وتابعت بصوت مرتفع بعض الشيء.

_ نور أمانة عندك يا أخي.

هذه كانت آخر كلمات والدي وقد وجهها للعم يوسف، وفارق
الحياة بعد ذلك بعدة دقائق، وفي المساء لحقت به أمي وأخي
أسامة، وهكذا فقدت جميع أفراد أسرتي.

رفعت المنديل المجعد ومسحت عينيها.

_ علمت بعدها بأن شاحنة محملة بالحديد قد اصطدمت
بسيارتهم بعد أن فقدت سائقها السيطرة عليها، كان وقع ذلك النبأ
على أهل المنطقة كالصاعقة، فقد كان والدي محبوباً من الجميع،
إذ كان يساعد عائلات فقيرة، ولم نعلم بذلك إلا عند وفاته، رأيت
العم عبد الرحمن " بقال الحي " يقف أمام باب منزلنا ويبيكي
بحرقة، وكان صديقاً له رغم فارق السن الكبير بينهما، أخبرنا الرجل
أن والدي قد تكفل بتسديد ديون عدد من العوائل الفقيرة ...

أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عينيها للحظات.

_ ومنذ ذلك الحين أقمت في منزل العم يوسف إقامة دائمة، وأخبرني بأن الله قد رزقه بطفلة سيسهر على سعادتها، وهذا ما حدث فعلاً، أما زوجته أمينة فقد منحني كل ما أتمنى.

انقلبت حياتي رأساً على عقب بعد ذلك اليوم الحزين، أصبحت أرى كوابيساً مخيفة كلما أغمضت عيني، وأخاف كل شيء.

أخرجت ماريا من حقيبتها وأخذت تنظر إليها وتبتسم.

_ انظري يا ضياء، لقد قلت لي بأن الدمى للأطفال، وبأن علي تركها، ولكني لن أتخلي عن ماريا مهما حصل، إنها هديتي من أمي عندما بغلت السادسة من عمري، طلبت مني المحافظة عليها لأنها ستكون صديقتي للأبد.

كان يستمع إلى حديثها ويراقب شلالين ينحدران من عينيها بغزارة، وكأنها قررت أن تكشف عن جميع الأسرار المحيطة بها دفعة واحدة، فقد كان يستغرب توقفها المتكرر عند محل ذلك الرجل الكبير، ويتساءل عن درجة القرابة التي تربط بينهما خاصة وأنه يشاهد ذلك الرجل يرفع يديه نحو السماء ويردد بعض الكلمات بعد أن تغادر نور نحو المنزل، وعلاقتها الغريبة بتلك الدمية، إذ أنها تتعامل معها كما لو أنها ما زالت طفلة صغيرة.

قالت بحزن :

_ عندما أخبرتني بالأمس بأن لا شبه بيني وبين العم يوسف، كنت أنظر إلى والدي وألاحظ الشبه الكبير بيني وبينه.

أجابها:

_ متأسف لذلك يا نور، لم أكن أعلم بأن سؤالك البارحة قد فتح جرحاً عميقاً، رحمهم الله.

_ ضياء، لم أتحدث لأحد عن ذلك الحادث، حتى ريما وأسماء، أنت أول شخص أبوح له بهذا السر.

مسح على عينيها وأخذ يتحدث إليها ليخرجها من تلك الحالة السلبية التي سيطرت عليها، ولكن دون جدوى، لاحت له فكرة مذهلة، وسارع إلى الإعلان عنها.

_ لن نذهب إلى الجامعة.

_ ماذا ؟

أجابت نور وقد فاجأتها كلمات ضياء، تابعت:

_ اقترب الامتحان، وعلينا أن ..

لم تتمكن من إكمال حديثها، فقد أمسك بيدها وسحبها، وغادرا المكان .

٢

_ وهكذا نكون قد أنهينا آخر محاضرة من مقرر مادة اللغة العربية لهذا العام، شكراً لكم جميعاً لما أظهرتم من احترام وأدب رفيع، أنتم مقبلين على الانتهاء من أولى معارككم في الحياة الجامعية، أود أن أخبركم بأن هذه الجامعة أنشأت لتخرج أبطالاً يقودوننا نحو مستقبل أفضل، قاتلوا من أجل أحلامكم، وتذكروا دائماً بأن الوصول لها وتحقيقها تنسيكم صعوبة التضحيات مهما كان حجمها ...

تركت كلمات الدكتور عصام أثراً عميقاً لدى الطلبة، نزل إلى المدرج وأخذ يصافحهم ويعطي كل واحداً منهم نصيحة خاصة به، وعند انتهاءه من الجميع تنبه إلى شيء ما.

_ هناك غياب، نور وياسين ويزن.

سارعت ريما إلى الإجابة:

_ نور تشكو بعض الآلام وقد نصحنها بالبقاء في المنزل.

أمسك قطعة من الورق وسجل عليها بعض الكلمات، أعطاها لريما وطلب منها بأن تسلمها لزميلتها، اقترب منه أحد الطلاب وهمس في أذنه:

_ يزن وياسين تم اعتقالهم منذ يومين.

أمرهم بالتجمع حوله ليلتقطوا صورة تذكارية من جواله الخاص،
التفوا حول أحد المقاعد الكبيرة وابتسموا جميعاً لذلك الاختراع
الصغير الذي كان يعيش سنينه الأولى بينهم، وقبل التقاط الصورة
أشارت أسماء لأحمد بالاقتراب منها ...

توجه لهم بكلمة أخيرة.

_ انتهاء العام الدراسي لا يعني انتهاء التواصل بيننا، إن واجهتكم
أية مشكلة فلا ترددوا في المجيء إلى مكثبي في المبنى الإداري، بابي
مفتوح لكم، حفظكم الله وجعل النجاح حليفكم دائماً.

غادر القاعة، وغادر الجميع خلفه.

استفسرت أسماء:

_ أين هي نور؟ لماذا تأخرت اليوم؟

زمت ربما شفيتها.

_ لا أعلم، انتظرتها صباحاً في موقف الحافلات ولكنها لم تأت،
وهاتفها مغلق منذ البارحة.

صدر صوت نغمة الرسائل من هاتفها

أضافت أسماء:

_ أيعقل أنها بصحبة ذلك الشاب ؟

حاولت أسماء تذكر اسمه.

_ ضياء، أليس كذلك ؟

قرأت ربما الرسالة وبدأت عليها علامات الغضب، وأجابت:

_ ربما

٣

زادت السيارة من سرعتها بعد أن تجاوزت منطقة الأسواق إلى شارع النهر، كان المكان مزدحماً بالسيارات والمارة، حيث يتواجد بالقرب منه المجمع الحكومي والعديد من المقاهي الشعبية المنتشرة بكثرة، ثم دلفت إلى الجسر العتيق " الأعيور " ، وهو جسر صغير على أحد روافد نهر الفرات التي تمر من داخل المدينة، ويعد محمية طبيعية للأسماك، حيث يُحظر صيد السمك في هذه المنطقة، ولهذا السبب دائماً ما يعج الجسر الصغير بزواره الذين يلقون فتات الخبز إلى الأسماك المتصارعة في الأسفل.

_ الحويقة ..

حي الحويقة، آخر أحياء دير الزور من الجهة الشمالية، وهو جزيرة تحيط بها مياه النهر من كل جانب، يرتبط بالمدينة وبريفها عبر سبعة جسور، يتميز بموقعه الفريد، مع إطلالة مثالية على شاطئ نهر الفرات، ويشكل مزيجاً رائعاً بين حياة الريف الهادئة، حيث البساتين الجميلة والواحات الخضراء، وبين حياة المدينة الصاخبة، حيث الكورنيش والأبنية الحديثة ومجموعات السياح، وكان يعج بزواره طوال العام.

اجتازت السيارة شارع الجسرين، وهو مدخل حي الحويقة من جهة المدينة، وسمي بذلك الاسم لأنه يبدأ بالجسر العتيق وينتهي

بمدخل الجسر المعلق، ويفصل حي الحويقة إلى شرقي وغربي، ويعتبر من أجمل شوارع المدينة، يمتاز بكثرة أشجار التوت على حافته، وهو عامر بالأبنية العتيقة الضاربة في القدم ...

أمسكت نور بإحدى حبال الجسر المعدنية، وأخذت تراقب حركة الطيور التي تملأ المكان، غير مكترثة بالرياح الشديدة التي سببت للجسر بعض الاهتزازات، يتألف الجسر المعلق من أربعة ركائز شاهقة، تربط بينها مجموعة كبيرة من القضبان المعدنية السمكية، تم افتتاحه عام ١٩٣١ بإشراف المهندس الفرنسي " ميسو فيفو " في زمن الاحتلال الفرنسي، وكان واضحاً بأنه قد تم استخدام آخر ما توصل إليه العقل البشري من الناحية الإبداعية في ذلك الوقت أثناء عملية تشييده، ويشكل الجسر المعلق رمزية خاصة لجميع سكان المدينة .

قلة قليلة من الطلاب يقطعون الجسر جيئةً وذهاباً، وقارب يحمل مجموعة من المزارعين ويتجه بهم نحو جزيرة صغيرة داخل النهر، وإلى جانبه سرب من البط وهم يسرون على شكل سلسلة متتالية بحثاً عن فريسة ما .

ذلك كل ما تبقى لهذا المكان الذي كان مليئاً بالحياة في وقت سابق، بدا الجسر المعلق موحشاً وفارغاً من زواره، وعلى غرار غالبية جدران المدينة، لطخت الحرب ركائزه المرتفعة بثقوب متفاوتة الأحجام.

عادت نور بذاكرتها إلى آخر زيارة قامت بها إلى الجسر المعلق برفقة والديها قبل بداية الأحداث الأخيرة، واسترجعت بعض الذكريات.

كان الجسر المعلق يعج بالسياح والزائرين، وبدا المشهد من الخارج وكأن هذا المكان ينتمي إلى عالم جميل لا وجود له، مدخل الجسر مؤلف من قوس صغير قد تشكل داخل أولى ركائزه، وما أن تجتازه إلى الداخل حتى تكتشف أجمل أماكن المعمورة ...

لوحة فنية تشكلها أشجار الغرب والصفصاف المنتشرة بكثرة على جوانب الجسر، بالإضافة إلى مشهد الفرات من الأعلى، وصوت مياهه وهي تسير بسرعة كبيرة، تقطعه مجموعة من القوارب الحديدية جيئة وذهاباً.

كانت نور حينها تراقب كل شيء، جمهرة من الناس يتجمعون حول أحد الصيادين، وهو يبذل جهداً كبيراً في سحب سمكة كبيرة علقت في سنارته، وآخرون ينتظرون دورهم في التقاط صورة تذكارية بكاميرة مصور محترف، وفي وسط الجسر ثمة مجموعة من الشبان المتهورين وهم يتنافسون فيما بينهم على القفز إلى مياه النهر، وبدافع من التحدي، قام شابين بتسلق حبال الجسر الفولاذية إلى أعلى نقطة ممكنة، ثم القفز منها إلى النهر بحركة بهلوانية حازت على إعجاب جميع المتواجدين، غير مبالين بالمخاطرة الكبيرة لذلك العمل، وفي الأسفل تتواجد سفينة كبيرة الحجم، تحمل عدداً من السياح وهي تسير بهدوء في جولة طويلة حول المكان،

طلبت نور من والدها قضاء مزيد من الوقت ورفضت فكرة والدتها في العودة إلى المنزل، وعندما حل المساء شكل انعكاس أنوار الجسر على المياه في الأسفل مشهداً خلاباً، مع هبوب نسيمات عليلة منعشة، مشبعة برائحة المياه، وكانت مجموعة كبيرة من السيارات تمر من أمام الجسر وهي تطلق العنان لأبواقها، ويعد ذلك من أهم طقوس الأعراس في دير الزور ...

غادرا الجسر بعد أن اشتد هبوب الرياح، وفضلت نور الجلوس تحت شجرة صفصاف كبيرة على ضفة النهر، وقد تبدل ذبول وجهها وبدت أكثر نشاطاً وسعادة بعد وصولها إلى هذا المكان، فقد نجحت خطة ضياء في إخراجها من الحالة السلبية التي سيطرت عليها منذ الأمس.

تحدثت له عن أحلامها بعد أن تنهي دراستها الجامعية، ستدافع بشراسة عن جميع المظلومين، وستبذل قصارى جهدها لتحقيق ذلك، وتحدث لها عن حلمه في منزل يجمع بينهما، وأطفال صغار يحملون ملامحها وطباعها الجميلة، وعندما توردت وجنتها خجلاً تذكر شيئاً ما، أخرج لها وردتها الصباحية، وكانت وردة حمراء لم يكتمل تشكل أوراقها بعد، وأهداها إياها بعد أن نزع عنها ثلاث شوكات، أمسكت بها نور واستنشقت عطرها، ثم همست لها ببضع كلمات غير مسموعة وهي تنظر إليها، قطب حاجبيه بتعبير يقول.

_ تتحدثين إلى وردة ؟

واقترب منها محاولاً الاستماع إلى حديثهما، إلا أنه لم يتمكن من سماع شيء، نتيجة أصوات الرياح التي تعبت بأغصان أشجار الغرب والصفصاف، وعندما انتهت نور من ذلك الحديث، قالت له بأنها تتحدث إلى الورود غير المتفتحة بشكل متكامل، وقد أخبرها والدها بأن ذلك يسرع من عملية نموها وتشكلها.

جلس الاثنان لساعتين إضافيتين، ضحكت خلالها كما لو لم تضحك من قبل عندما أخبرها عن محاولاته الفاشلة للتقرب منها والحديث إليها في الجامعة، وعن الأوراق التي كان يسهر على كتابتها وتمزيقها، لم يفوت الفرصة، وسارع إلى تأليف مجموعة أحداث غير حقيقية، في محاولة منه لسماع المزيد من تلك الضحكات، وتخليداً لهذه الجلسة قام بنقش قلب كبير على جذع شجرة الصفصاف يضم اسميهما، ورغم أن شكله النهائي كان رديئاً، إلا أن نور أعجبت به، وعبرت عن سعادتها من خلال التقاط عدة صورة لذلك النقش، وقام ضياء بوضع تاريخ اليوم أسفله وأخذ ينصت إلى نور التي كانت تحدثه.

_ ضياء، ما الذي يجري في المدينة، لم يسبق لي أن سمعت بمثل هذه الأصوات من قبل.

_ لا شيء، اعتدنا على اشتداد المعارك لفترة من الزمن، ثم تعود الأمور إلى وضعها الطبيعي.

_ هذه أول مرة يلجأ فيها ضياء إلى الكذب.

حدثتها نفسها بذلك، كانت عيناه تفر من نظراتها وهو يجيب عن أسئلتها، فالمدينة تعيش حرباً حقيقية تجري كل مساء، وفي جميع أحياءها على غير العادة، لم يسبق لدير الزور أن عاشت أياماً كهذه، باستثناء الأحداث التي جرت في آب/أغسطس من العام المنصرم، فقد كان واضحاً بأن الأمور في المدينة تسوء يوماً بعد يوم، ولكن ضياء ينفي ذلك وقد تبدلت تعابير وجهه المرححة بأخرى كئيبة منذ أن بدأت نور بالحديث عن المعارك.

_ لا أعلم، ولكن ينتابني شعور بأن ما نعيشه الآن هو البداية فقط، فالقادم سيكون أشد وأكثر رهبة، وسوف أخبرك بشيء.

وضعت الوردة جانباً، وتابعت:

_ ذلك الانفجار المرعب الذي صدر ليلة الأمس أثناء المعركة جعلني ألجأ أنا وماريا إلى غرفة والدي وقضاء ليلتنا إلى جوارهم ..

أشعل سيجارة ذات فلتر أصفر وأخذ ينظر إلى مجموعة القوارب المصطفة على حافة النهر، وكانت تهتز وتميل على بعضها بفعل

سرعة الرياح، مرت عدة لحظات من الصمت قبل أن يقطعها ضياء.

_ أرجو ألا يحدث ذلك.

ثم توقف عن الكلام وتابع مراقبة القوارب.

شعرت نور بأنه لا يريد الحديث في ذلك الشأن، وقررت الابتعاد عن موضوع الحرب.

_ ضياء، غداً سوف يتوقف دوام الجامعة استعداداً للفحص، ولن أتمكن من رؤيتك حتى بدء الامتحان.

أخذ نفساً عميقاً من السيارة ونفثها بقوة، وأخرج لها هاتفه المحمول وأشار لها نحوه مبتسماً.

_ سوف يبقينا على تواصل دائم حتى بداية الامتحانات، أليس كذلك؟

وقبل أن تجيبه رن هاتفها، أشارت له بعدم إصدار أي صوت، وضغطت على زر الإجابة.

_ كيف حالك يا نور، هناك أنباء سارة، نحن الآن في مركز انطلاق البولمان ننتظر وصول العم إياد وأسرته.

صرخت نور.

_ خلود قادمة ؟ هذا رائع.

تابعت وعلامات السرور تملأ وجهها.

_ نعم يا أميء سوف آتي في الحال

أغلقت الهاتف ووضعت يدها على فمها ونظرت نحوه.

_ يجب أن نغادر الآن، سوف أحدثك عن خلود في طريق العودة.

التقطت مجموعة من الصور التي تجمع بينهما وأخبرته بأنها ستحتفظ بها إلى الأبد، ثم أطلقت بصرها متفحصة كل شيء، تصرخ من أعماقها أصوات نشزة، تخبرها بأن هذه الزيارة ستكون الأخيرة إلى هذا المكان، ولن تتمكن من رؤية الجسر المعلق مجدداً، وقبل مغادرتها، أخذت تتلمس ركائز الجسر وحباله وكأنها تلعن تلك الأصوات وترفضها، ثم التفتت نحوه وقالت:

_ ضياء، شكراً لك على كل شيء ...

٤

انتهت ندى لتوها من إعداد منزل صغير، بمساعدة الدمى، احتاجت لعلبتين من المكعبات البلاستيكية الملونة لإتمامه، وأخذت تعمل على تزيينه ببعض الشرائط الملونة وتضع المكعبات المتبقية على جوانبه حتى يبدو بأبهى حلة، وكانت تحث الدمى على إنجاز المنزل بأسرع ما يمكن.

_ هيا يا بيلا، لقد أهدرنا الكثير من الوقت، ولم يعد هنالك متسع، علينا الانتهاء من العمل قبل عودة ضياء.

لم تكن بيلا سعيدة بذلك العمل، إلا أنها مُجبرة على إرضاء رغبات ندى، أما ساندي فقد كانت تراقب ما يجري من على المنضدة الخشبية، حيث تقضي عقوبتها الثالثة على التوالي، ولكن قرار ندى في صنع منزل للدمية الجديدة استفزها كثيراً وأثار غضبها، خاصة وأنها اختارت للمنزل موقعاً قريباً من المنضدة التي تقضي فيها عقوبتها، وهكذا ستصبح مضطرة إلى مشاهدة إيميلي وهي تنعم بمنزلها الجديد، لم تحتمل أكثر من ذلك.

_ ولماذا تصنعين لإيميلي منزلاً جديداً، بينما تكدسين جميع الدمى في تلك السلة اللعينة؟

تابعت غالبية الدمى عملها ولم تكثر لكلمات ساندي، بل وطالب بعضها بمضاعفة عقوبة ساندي على إثارتها للمشاكل، بينما كان البعض الآخر يستمع إليها ويترقب رد ندى المنتظر.

_ يا لك من دمية مشاغبة، ولا تحبين الخير للآخرين.

حملت إيميلي بين يديها وتابعت:

_ إيميلي تسعى إلى إصلاح الخلافات الحاصلة بين الدمى، وهي محبوبة من الجميع، ولهذا تستحق أن يكون لها منزل خاص بها، أما أنت فإنك تعملين على إثارة المشاكل، بلا أسباب منطقية، وتستحقين عقوبة مضاعفة، وهذا ما سيحصل دائماً إذا بقيتي على هذا الحال.

شعرت إيميلي بالإحراج الشديد، وتحدثت:

_ إن كان ذلك المنزل يضايقك يا ساندي، فأني أفضل البقاء داخل السلة تجنباً لأي خلاف، إنني أنتمي إلى الدمى، ومعتادة على العيش داخل السلة، بل وأجدها أكثر راحة من أي مكان آخر.

ابتسمت ساندي وأحست بأنها تمكنت أخيراً من النيل من الدمية الجديدة، تنبهت ندى لذلك الأمر.

_ لا عليك يا إيميلي، أنا من يقرر هنا وأنا من ...

قاطعت ساندي حديث ندى.

_ ولماذا لا تقولي حقيقة اختيار غرفة ضياء لبناء المنزل، لقد استمعت لحديثكما البارحة وإيمكاني أن أخبر الجميع الآن لماذا وقع اختيارك على إيميلي لتسكن فيه ...

كانت والدة ندى تُعد طعام الغداء في المطبخ عندما سمعت صوت صراخ الطفلة، يبدو أن معركة أخرى قد نشبت بينها وبين تلك الدمى، سارعت إلى الانتهاء من تقطيع مجموعة من الخضار وأخذت تبحث عنها في غرف المنزل، تتبعت صوت الطفلة المرتفع، فوجدتها في غرفة ضياء تقذف بدمية صغيرة وتنهال عليها باللكمات، وبدت عليها علامات الغضب والتوتر.

_ ندى، ماذا هنالك؟

_ لا شيء، سوف تبقى إيميلي هنا في منزلها الجديد.

_ ماذا؟ منزل!

أشارت لها إلى مجموعة المكعبات البلاستيكية بالقرب من سرير ضياء، ووضعت دمية في أعلاها.

كانت والدتها تراقب طريقة كلامها، لم تعارضها حتى لا تتفاقم الأمور وتعود إلى لكم الدمية، وفي هذه الأثناء فتح ضياء باب المنزل ودخل إلى غرفته.

_ ما كل هذه الفوضى ؟ ماذا هناك ؟

ابتسمت والدته وأجابت:

_ لا شيء، هناك زائر جديد سيقوم إلى جوارك.

ثم أشارت له إلى منزل إيميلي، نظر إلى وجه ندى المحتقن، اقترب منها وحملها بين ذراعيه، قبلها، لكنها لم تبد أي ردة فعل على غير العادة، نظر إلى دميتها موجهاً حديثه لها:

_ مرحباً بك يا إيميلي.

أزاحت ندى عن عينها خصلة شقراء وقالت بنبرة حادة:

_ أنزلي.

أنزلها ضياء إلى الأرض، وتقدمت نحو إيميلي وتحدثت إليها بصوت منخفض.

_ افعلي ما طلبته منك يا إيميلي.

ثم سحبت سلة الألعاب إلى خارج الغرفة، وشفقت الباب خلفها...

٥

هل يمكننا أن نعيش بلا بكاء ؟

الجواب " كلا "

نحتاج إلى البكاء أكثر من حاجتنا إلى أي شيء آخر، وفي جميع أحوالنا، فنحن نبكي عندما نحزن، و نبكي عندما نفرح، نبكي لفراق الأحبة، ونبكي للقائهم أيضاً، نبكي عندما نُحب، ونبكي عندما نكره، نبكي عندما لا تُستجاب دعواتنا، ونبكي إذا أُستجبت أيضاً .

بكاء، بكاء، بكاء، المزيد من البكاء من حولنا ..

مسحت نور وخلود دموعهما بعد أن احتضنتا بعضهما لوقت طويل، وجلست الفتاتين في إحدى زوايا الغرفة، وأخذتا يتبادلان الأحاديث، غير مكترثتين بما يجري حولهما، تحدث إياها بعد أن انتهت عاصفة الترحيب.

_ لم أشاهد تغييراً كبيراً طراً على المدينة يا أخي، على الأقل في الطريق من مركز انطلاق البولمان حتى المنزل، وكأني غادرت المدينة بالأمس.

أجاب يوسف:

_ نعم يا أخي، الفضل في ذلك يعود إلى عمل الحكومة وهي توصل الليل بالنهار في تنفيذ المخططات التنموية والمشاريع الكثيرة حتى تبدو المدينة بأبهى حلة.

أجاب يوسف على سؤال شقيقه إياد بطريقة مستفزة بعض الشيء، خاصة وأن شقيقه كان في وقت سابق يشغل منصب هام في الدولة، وكما هو الحال في كل منازل المدينة في تلك الفترة، دخل الاثنان في نقاش مطول عن أوضاع البلاد، وتصوراتهم للمرحلة المقبلة، تحدث العم إياد بأن الأوضاع مستقرة نسبياً في حلب، إلا أن عمله في تجارة الأقمشة تراجع قليلاً، بسبب مغادرة قسم كبير من التجار إلى الخارج خوفاً من تدهور الأوضاع الأمنية وضياع أموالهم في حرب متوقعة بين ليلة وضحاها، وقد نصحه أحد التجار المقربين ببيع متجره ومغادرة البلاد، وقال له قبل أن يغادر: _ إن نجونا من الحرب، فلن ننجو من أزمة اقتصادية خانقة ستعصف بالبلاد.

أما يوسف فقد كان ينصت لحديث أخيه إياد، ويوجه له بعض الملاحظات من حين إلى آخر، دون مقاطعته، وكان الحديث يتركز حول الجانب الاقتصادي أكثر من الجانب الأمني، وعندما سأله يوسف عن الوضع الأمني بحلب أجابه:

_ نعم هناك بعض الاحتجاجات التي تجري هنا وهناك، ولكن الحياة تسير بشكل طبيعي، ولا يوجد أي مشاكل.

استمر النقاش طويلاً، واحتد الرجلين بعض الشيء، حتى أن أمينة أشارت لزوجها بإنهاء ذلك الجدل، ولكنه لم يستجب لها، وهكذا نقاشات تحتاج بطبيعة الحال إلى كمية مضاعفة من السجائر والمشروبات الساخنة، وهذا ما أتاح فرصة للفتاتين تمكنهما من الابتعاد عن الأخبار السيئة المتداولة في تلك الجلسة، والذهاب إلى المطبخ لإعداد الشاي، تحدثت خلود:

_ لقد افتقدتك كثيراً يا نور.

_ وأنا أيضاً يا حبيبتي، سوف نعوض كل ذلك الغياب قبل عودتكم إلى حلب.

_ أخشى أننا لن نتمكن من ذلك.

التفتت نحوها:

_ ولماذا ؟

_ سوف نعود إلى حلب بعد غد الثلاثاء، والذي لا يستطيع ترك عمله لأكثر من يومين، ورفض فكرة بقائنا هنا وعودته بمفرده .

ارتسمت على وجهها علامات الحزن وأخفضت رأسها قليلاً، كانت خلود تصغرها بثلاثة أعوام، وقد تقاسما سنين الطفولة قبل أن يقرر والدها السفر إلى حلب للعمل في تجارة الأقمشة، وكانت خلود تتميز بذكاء منقطع النظير، بالإضافة إلى أنها تحمل كثيراً من صفات الجمال، تحدثت نور:

_ فليذهب العمل إلى الجحيم.

_ أين هي ماريا؟

_ إنها نائمة.

اتجهت خلود نحو غرفة نور وجلبت ماريا إلى المطبخ، كانت ملتزمة بالتعليمات، فقد أيقظتها بهدوء وحملتها بين ذراعيها، ولم تبالي في تقبيلها، وكانت تنبعث من ماريا رائحة عطر خاصة بالأطفال " هامول " تحرص نور دائماً على وجود علبتين مليئتين منها في المنزل، استنشقت كمية مضاعفة من تلك الرائحة المميزة أثناء عودتها إلى المطبخ، وأخذت تتساءل عن تلك القوة التي استطاعت إحداث جرح صغير في رأس الدمية، وكيف لهذا الحدث الخطير أن يحصل تحت أنظار نور، وعند سؤالها عن ذلك، ابتسمت نور وأجابتها:

_ إنها القطة كاتيا، كانت تلاعب ماريا عندما ذهبت لأعد العشاء، تسببت لها بجرح صغير، ومنذ ذلك اليوم، لم أدع القطة تقترب منها إلا بحضوري، ولدقيقة واحدة فقط.

فكرت خلود فيما لو كان ذلك الجرح قد تسبب بأزمة كبيرة بين العائلتين، ثم نظرت إلى ماريا وابتسمت.

_ إنها تزداد جمالاً كلما رأيتها ثانية.

أجابتها نور:

_ إنها جميلة دائماً.

أمضيا يومهما في الحديث عن الذكريات التي جمعت بينهما سابقاً، وعن الفترة التي قضياها بعيداً عن بعضهما البعض بأدق تفاصيلها، أطلعتها خلود على النتائج السلبية لتغيير مكان إقامتهم السابق، فلم يعد بإمكانها الذهاب إلى حديقة الألعاب المجاورة لهم كل يوم، واضطرت إلى الابتعاد عن غزل وحلا صديقتها في المدرسة، والتي كانت دائماً ما تحدثها عنهم عبر الهاتف، أما عن الشيء الإيجابي في الأمر، فقد تعرفت على مجموعة من الفتيات، يقيمن في نفس البناء الذي انتقلت إليه مؤخراً، وأخذت تحدثها عن الفتيات كل واحدة على حدة.

_ هذا جيد، بالتأكيد، جميل، نعم.

اقتصرت إجابات نور على تلك الكلمات، وكانت تذهب بأفكارها بعيداً عن حديث خلود، وظهر ذلك من خلال شرودها المتكرر، وابتسامتها التي تظهر وتختفي بشكل مفاجئ، وعلى اعتبار بأنها تحفظ نور عن ظهر قلب، لم تحتج خلود كثيراً من الوقت لكي تتيقن بأن شيئاً ما يشغل تفكيرها، لم تنتظر أكثر من ذلك، وبادرت بالسؤال عن ذلك.

_ ولكن ما هو ذلك الشيء الذي لم تخبرني به حتى الآن؟

أنكرت نور، وحاولت الهروب من الإجابة، وأخذت تحدثها عن الحياة الجامعية، وعن المشاكل التي واجهتها منذ دخولها إلى الجامعة، أدركت خلود بفطنتها بأن نور، تتهرب من الإجابة، وتحاول تغيير الموضوع، قاطعتها:

_ نور، لماذا لا تخبريني ؟

أشارت لها بنظرة خاطفة نحو ماريا، سارعت خلود إلى إخراج ماريا من الغرفة ثم العودة إلى غرفة نور وهي متشوقة إلى سماع حديثها، لاحظت احمرار وجهها، ابتسمت لها وجلست إلى جوارها، وأخذت تستمع إلى قصة ذلك الشاب ...

حل المساء، وحلت معه إحدى المعارك التي اعتادت عليها دير الزور، لم يعد أحد في هذه المدينة يكثرث للأمر فهي أصبحت روتيناً طبيعياً يجري كل مساء، أيعقل أن يأتي يوم ما على دير الزور لا يسمع فيه أزيز الرصاص، ولا دوي الانفجارات، ولا يموت فيه أحد؟؟

ماذا سيفعل سكان المدينة في يوم كهذا؟؟

هل سيزعجهم الأمر؟ فهم اعتادوا السهر على صخب المدينة وأصواتها المرتفعة، أم أنهم سيعودون إلى ممارسة حياتهم الطبيعية بعد مغيب الشمس، والتي افتقدوها منذ مدة ليست بالقصيرة .

الحرب سيئة المزاج، تفرض على الجميع أوقاتاً معينة لممارسة الحياة بصورة شبه اعتيادية، ويتوجب عليهم إطاعة الأوامر دون تدمير، والتعايش مع بشاعتها ونتائجها الكارثية على أنها أفضل الخيارات المتاحة في الوقت الراهن ...

كانت هند زوجة العم إياد تصرخ وهي تتنقل بين غرف المنزل بحثاً عن خلود، والرعب يملأ قلبها، فيما كانت أمينة تلحق بها وتهدأ من روعها، وجدت الفتاتين في غرفة نور وهما يتبادلان الأحاديث، تساءل العم إياد:

_ ما هذه الأصوات يا أخي ؟

أجاب يوسف مبتسماً.

_ لا تقلق يا إياد فإن ذلك يحصل كل يوم، إنها إحدى المعارك الليلية التي اعتدنا عليها مؤخراً.

زم شفتيه مستغرباً ذلك.

_ معارك ليلية ؟ ولكن ذلك لا نشاهده على التلفاز، لم أكن أعلم أن الأمور هنا بهذا السوء.

ضحك يوسف وعدل من جلسته.

_ ألم أقل لك ذلك منذ قليل، هذا يعتمد على اختيارك للمحطات التلفزيونية التي تقوم بمشاهدتها يا أخي، فالقنوات المنشغلة

بتقديم برامج وثائقية عن حياة البطريق في القارة القطبية الجنوبية، وبمرافقة المسؤولين الحكوميين لعرض إنجازاتهم الوهمية، لن تعطيك صورة حقيقية عما يجري في البلاد ...

نظر العم إياد نحوه مطولاً، لم يكن يرغب بخوض جولة نقاش ثانية، بل كان منشغلاً بالاستماع إلى أصوات إطلاق النار وإلى الانفجارات التي لم يسبق له أن سمع بها حتى أثناء خدمته الإلزامية، جلست خلود إلى جانبه وهي تمسك بيد نور، وقد بدا عليها الارتباك والتوتر، أما زوجته فقد كانت تبكي وترتجف، تحدث العم إياد:

_ حسناً يا أخي، نحن في حلب لم تصلنا نيران الحرب بعد، وما نزال نمارس حياتنا بشكل طبيعي طوال الوقت، وهناك مناطق أخرى كثيرة لم تصلها المعارك.

وجه نظرة إلى أخيه وتابع:

_ أظن بأنك تشاهد ذلك أيضاً في المحطات الإخبارية التي تتابعها، أم أنهم يصورون لك البلاد وكأنها كتلة من اللهب المشتعل ...

عبر يوسف عن لامبالته بابتسامة خفيفة، ودعاهم إلى شرب الشاي فهو يساعد على الهدوء، وأخذ يلاطفهم ويلقي بعض النكات حتى يخرجهم من حالة الخوف التي سيطرت عليهم، وفي هذه الأثناء تعالت الأصوات من جهة الشارع، وسارع يوسف إلى التوجه

إلى الشرفة ومشاهدة ما يجري، كانت هناك ثلاث سيارات رباعية الدفع، اثنان منها تحمل رجالاً يرتدون ملابس عسكرية، ويحملون بأيديهم أسلحة حربية، والسيارة الثالثة فارغة، كانت الأصوات قادمة من المبنى المقابل لمنزلهم تماماً، وبعد عدة لحظات خرجت مجموعة كبيرة من الرجال وتوجهوا الى السيارة الفارغة، القوا شاباً في المقعد الخلفي، وبدأ أنه لا يقوى على تحريك جسده، ثم غادرت السيارات الثلاثة بسرعة كبيرة ...

مرت الدقائق ثقيلة على أسرة العم إيد، كانت زوجته تمسك بالقرآن الكريم وتقرأ سوره بصوت منخفض، وبسرعة كبيرة، وكأنها تريد أن تعيد قراءته عشرة مرات في هذه الليلة، أما خلود فقد كانت أكثر تماسكاً، طمأنتها نور بأن كل شيء على ما يرام، حتى ماريا الصغيرة لم تعد تختبئ كما كانت تفعل سابقاً، ولكنها عادت بذكرتها إلى أول معركة جرت في المدينة، حينها انخلع قلبها خوفاً من صوت الرصاص، وأعقب ذلك اليوم مجموعة من الكوابيس المرعبة، ولم تستطع النوم في غرفتها مدة ثلاثة أيام.

سمعت صوت والدتها من المطبخ.

_ لقد حان وقت النوم يا نور.

في الواقع فإن وقت النوم قد حان ومضى عليه الكثير، فالنظام الخاص بمنزلهم، والغير مكتوب، ينص على أن الساعة العاشرة تعني انتهاء اليوم بشكل رسمي، وذهاب الجميع إلى النوم، أجريت

عدة تعديلات على ذلك النظام مع بداية المعارك في المدينة، نتيجة للخوف الشديد الذي كان يصيبها هي ووالدتها، أما الآن، وبعد أن أصبح الأمر معتاداً ولا يثير أي مخاوف، أعيد تفعيل النظام القديم في المنزل، مع الإشارة إلى استثناء وحيد، وهو وجود زائرين ...

وعلى عكس طبيعتها، كانت خلود تلتزم الصمت ولا تتحدث إلا عندما تحدثها نور، طلبت منها أن تغمض عينيها وتنسى أمر تلك الأصوات، ولطمأنتها أكثر، طلبت من ماريا أن تحتضنها حتى تنام. أمسكت بهاتفها وسارعت إلى قراءة مجموعة من الرسائل.

_ الرسائل الواردة

ريما : أين أنت يا نور ؟ ولماذا لا تجيبي على الاتصالات ؟

ريما : أنا انتظرك في موقف الحافلات.

ريما : قلقك عليك كثيراً يا نور، لماذا هاتفك مُغلق ؟

_ الرسائل المرسلة

نور : لا تقلقي يا ريما، أنا مع ضياء.

_ الرسائل الواردة.

ريما : سوف أقتلك.

ما إن انتهت من قراءة آخر رسالة حتى ظهر لها اسم ضياء على الشاشة وإلى جانبه عبارة " يتصل بك " ضغطت على زر الإجابة وتوارت تحت أعطيتها.
_ ضياء.

_ اشتقت لك كثيراً يا حبيبتي.

أحست بتغير في نبرة صوته.

_ ضياء هل أنت بخير ؟

_ هناك مشكلة صغيرة، أنا الآن في المستشفى

_ مستشفى ؟ ماذا هناك.

_ أصيبت ندى بنزلة برد شديدة، وأخبرني الطبيب بأنها تحتاج للبقاء في المستشفى لبعض الوقت، اطمئني، الأمور على ما يرام، وقد تحسنت كثيراً.

_ حسناً يا عزيزي، لن آخذ من وقتك الكثير، لديك ما يُشغلك.

_ لا مشكلة في ذلك، يمكنني الحديث الآن.

_ أود أن أخبرك بأن الذهاب إلى الجسر المعلق كان فكرة رهيبة، المكان جميل، وتمنيت أن أبقى هناك لأطول فترة ممكنة.

ارتفعت حدة الاشتباكات في الخارج، وكان يصعب على ضياء سماع حديثها لقرب المستشفى من نقطة الاشتباك.

_ أوافقك الرأي، المكان جميل جداً، ووجود فتاة جميلة مثلك فيه جعله أجمل مكان في العالم، سوف نعاود الذهاب إلى هناك مرات كثيرة.

_ آمل ذلك.

ثم سألته:

_ ضياء، ما هذه الأسلحة المخيفة التي تُستخدم الآن، لم نكن نسمع صوتها من قبل .

_ إنها حقاً مخيفة، خاصة ذلك الرشاش الذي يكون صوته على شكل انفجارات متسلسلة.

_ ولماذا يحدث هذا الجنون هنا ؟؟ لماذا لا يذهبون بعيداً عن المنازل ويقومون بتصفية حساباتهم هناك؟

كانت نور منفعة بعض الشيء، وأخبرته بما حدث لذلك الشاب منذ قليل، أجبها:

_ لا أعلم، ولا يهمني كثيراً، ما يهمني الآن هو أنتِ.

لم تُجب، وكان واضحاً بأن تلك الكلمات الأخيرة ستهدئ من حدة حديثها، بل وتزيلها.

_ أحبك يا نور.

صدر صوت سلسلة من الانفجارات العنيفة، شعرت نور بخوف شديد من تلك الأصوات المفزعة، وأحست بأن خلود ترتجف تحت أغطيتها وهي تحتضن ماريا بكلتا يديها، ولكنها لم تعر ذلك أي اهتمام، ابتسمت.

_ ماذا قلت يا ضياء؟

_ أحبك.

أضاف:

_ بعدد زخات الرصاص التي تسمعونها الآن، وبعدد التي ستستمعين إليها فيما بعد.

اشتد هبوب الرياح في الخارج، وكانت نافذتها تصدر أصوات أشباح مخيفة، بالإضافة إلى اهتزازها بشدة مع كل انفجار. ضحكت .

_ كثيرة هي.

_ نعم.

استمر حديثهم نصف ساعة إضافية، تحدثت فيها نور عن كل ما حدث معها منذ أن عادت إلى المنزل وحتى إجراء المكالمة الأخيرة، أخبرته عن لقاءها مع خلود، وعن الأحاديث التي جرت بينهما، وعن

خوف أسرة العم إياد من أصوات الرصاص والمعارك، وفي هذه الأثناء، خرجت والدته ومعها ندى من غرفة الطبيب، وبدأت أكثر نشاطًا من السابق، وعلى أثر ذلك انتهى الاتصال بينهما بكلمات أخيرة.

_ ضياء، عدني بأنك ستكون بخير.

_ أعدك بذلك يا حبيبتي، أراك غدًا في كافتيريا الجامعة، إلى اللقاء.
رفعت نور الغطاء عنها، وبعد دقائق انتقلت إلى عالم الظلام.

_ المسافرون إلى حلب، المسافرون إلى حلب، حان موعد الانطلاق ...

نطق بتلك الكلمات شاب أسمر، يرتدي قميصاً أبيض ويضع ربطة عنق زرقاء، وضع حقيبتين كبيرتين داخل الحافلة وقد لاقى صعوبة كبيرة في حملها.

كان المكان مكتظ بالناس، جُلهم يحملون حقائبهم بانتظار الحافلات التي ستقلهم إلى خارج المدينة، بدأت تتعرف قليلاً على المكان، إنه مركز انطلاق البولمان مع اختلاف بسيط، حيث بدا أن المكان أصغر من حجمه الحقيقي، ولم يستوعب كل هذه الأعداد، حتى أنها شاهدت أناساً يقفون على رصيف الشارع المقابل.

_ حان موعد الوداع يا نور.

تحدثت خلود التي كانت منشغلة بحزم حقيبتها الصغيرة، والتي لم تشعر بوجودها إلى جانبها، فيما كان العم إياد وزوجته هند قد صعدا إلى الحافلة وجلسا بانتظار ابنتهم.

_ ولكنه أول يوم لكم هنا يا خلود، هل نسيت كم خططنا لزيارتكم هذه.

أشار العم إياد إلى ابنته بأن تلتحق بهم، فالحافلة على وشك المسير، سارعا إلى احتضان بعضهما وأخذتا تبكيان.

_ إلى اللقاء يا نور، ولعلنا لن نلتقي بعد اليوم.

_ سأشتاق لك يا عزيزتي.

صعدت إلى الحافلة ولوحت لها بيدها من خلف الزجاج الكبير أثناء انطلاق الحافلة، انطلقت مجموعة من الحافلات في نفس التوقيت، وكأنهم يتنافسون على الخروج من المدينة، وبدأ المكان يخلو ويفرغ من رواده.

لم يكن هنالك أصوات معارك، المدينة صامتة تراقب أبناءها وهم يحزمون أمتعتهم ويغادرونها، لا يوجد لحظات وداع، فالجميع سيغادر، حتى طيورها لم يعد لها تواجد، إلا بعض الطيور العابرة والتي تحلق على ارتفاع شاهق محاولة تجنب الاقتراب من هواء المدينة الملوث بالبارود، باغتها صوت من الخلف.

_ ماذا تفعلين هنا ؟

كان ذلك الصوت يعود إلى رجل يحمل كيساً كبير الحجم ويعاني من إصابة في قدمه، وكان يسير باتجاه مركز انطلاق البولمان، ولكنه توقف عندما شاهدها، تلعثت بادئ الأمر، ولكنها استجمعت قواها وأجابت:

_ لا شيء، سوف أعود إلى المنزل.

أعاد الرجل كلماتها بطريقة تعجبية:

_ سوف أعود إلى المنزل؟؟

أجابت نور وقد بدأ الخوف يجتاحها:

_ نعم.

أشار لها الرجل إلى المنازل المحيطة بالمكان.

_ جميع هذه المنازل التي ترينها فارغة، فالجميع غادر المدينة، وأظن بأنهم لن يعودوا، وأنا سأغادر الآن.

_ ولكن لماذا؟ لماذا الجميع يغادر؟

_ يتوجب على الجميع مغادرة هذه المدينة بأسرع ما يمكن، فالحرب مقبلة لا محالة، والبقاء هنا يعني الموت.

تابع طريقه وهو يصرخ.

_ البقاء هنا يعني الموت، البقاء هنا يعني الموت، البقاء هنا يعني الموت

أفاقت مذعورة من نومها، ووضعت يدها على فمها، كان وجهها متعرق، وبالكاد تلتقط أنفاسها، ولكنها هدأت قليلاً عندما شاهدت خلود تستلقي إلى جوارها وتغط في نوم عميق ..

٦

" الفاجعة "

على الطرف الآخر خرج ضياء من منزله في وقت مبكر، ووجد أصدقاءه بانتظاره في الخارج، وتوجه الجميع نحو موقف الحافلات القريب من منزل ضياء، وما أن وصلوا إلى الشارع الرئيسي حتى تسلق ضياء سور أحد المنازل المجاورة وقطف وردة جورية حمراء، ووضعها داخل أحد المقررات التي يحملها ..

كانت دير الزور هذا الصباح على موعد مع عاصفة غبارية شديدة، حيث قُسمت سماء المدينة إلى عدة ألوان يطغى عليها اللون الأحمر والأصفر، تحدث أمجد وهو يزيل ذرات الرمال الصفراء من على بلور نضارته.

_ ألم أقل لكم البارحة بأن العاصفة الغبارية مقبلة لا محالة، الهواء الشديد يوم أمس أنذر بذلك.

أجاب وليد وهو يشير إلى الأعلى.

_ لقد أقبلت انظروا.

كانت سلسلة جبلية من الرمال الحمراء والصفراء والسوداء تتحرك ببطء نحو المدينة من بعيد، في هيئة مرعبة أشبه بأفلام الخيال

العلمي، ومع اقترابها تضاعفت سرعة الرياح بشكل كبير، حاملة معها أعداد هائلة من أكياس النايلون وأوراق الأشجار المتطايرة.

أمسك بأسل بهاتف ضياء وأخذ يصور ذلك المشهد عندما شارفت العاصفة على الاقتراب منهم، بدأت العاصفة مع وصول سحب غبارية حمراء على شكل ألسنة اللهب، وقامت تلك السحب بالتغطية على أشعة الشمس وحجب الرؤية بشكل شبه تام، في هذه اللحظات كان ضياء ينظر إلى نهاية الشارع بحثاً عن سيارة ما تمر بالقرب منهم، لتحملهم إلى الجامعة، شاهد أضواء حمراء وزرقاء لم يتمكن من تمييزها مقبلة نحوهم، تحدث أمجد:

_ من الطبيعي أن لا نحصل على مركبة هذا اليوم، لأن العاصفة شديدة وتختلف عن مثيلاتها، انظروا لها فهي شديدة إلى الحد الذي يجعل المرء يفكر ألف مرة قبل الخروج من المنزل.

وما إن انتهى من حديثه حتى أقبلت سيارة إسعاف وهي تسير بسرعة كبيرة، مطلقة العنان لأبواقها المزعجة ولأضوائها الحمراء والزرقاء، تبعتها سيارة إسعاف أخرى في الاتجاه المعاكس، وقد كانت سيارات الإسعاف تنشط أثناء العواصف الغبارية لتنقل مرضى الربو إلى المستشفيات، شاهد الجميع سيارة بيضاء كبيرة تتقدم في اتجاههم من بعيد، أخذوا يلوحون لها بأيديهم، خفت السيارة من سرعتها واقتربت منهم، سبق ضياء الجميع واتجه نحوها، وقبل أن تتوقف، وعلى حين غرة، ضغط سائقها على

الفرامل بقوة فتوقفت على الفور، فُتحت أبوابها الأربعة في نفس التوقيت، ونزل منها أربعة رجال يحملون بأيديهم أسلحة حربية، صعق ضياء من تلك المفاجأة ولم يستطع تحريك ساكن بعد أن وجهت فوهة إحدى البنادق نحو عينه اليمنى، صرخ حاملها في وجهه:

_ قف مكانك ولا تتحرك، وإلا سأهشم رأسك.

فر أصدقاؤه كل واحد منهم في جهة، ولم يتمكن من معرفة ما حصل لهم، جثا على ركبتيه بعد أن تلقى ضربة شديدة على ساقه من الخلف، أخذ الرجل يفتش في ملابسه ويتحسس كل أجزاء جسده بحثاً عن شيء ما، وعندما انتهى من التفتيش صرخ:

_ إنه غير مسلح.

ضربه على ظهره ضربة تهاوى جسده على الأرض من شدتها، وما هي إلا ثوان قليلة حتى صفدت يداه وغطوا رأسه وعينيه بقميصه، ووجد نفسه غير قادر على تحريك جسده.

أقبل الرجال الثلاثة نحو السيارة بعد أن فشلوا في إلقاء القبض على باقي الشبان الأربعة، ويرجع السبب في ذلك إلى حلول الظلام المفاجئ نتيجة العاصفة الغبارية الغير متوقعة، كانوا يشرحون ذلك لأحد ما داخل السيارة، وجه لهم مجموعة من الشتائم وطلب منهم جلب ذلك الشاب الملقى على الأرض، انهال الجميع بالضرب

المبرح على جسد ضياء وكأنهم يحملونه نتيجة فشل مهمتهم في إمساك باقي رفاقه، أمسك أحد الرجال بقدمه وأخذ يجره نحو السيارة، حملوا جسده المنهك وألقوا به في صندوق السيارة الخلفي، وما أن صعد آخر الرجال حتى غادرت السيارة المكان بسرعة كبيرة ...

كان باسل يقف على سطح أحد المباني القريبة، ولا يزال يمسك بهاتف ضياء وينظر من خلف جدار صغير إلى ضياء وهو يتلقى الضربات الموجهة، وعندما غادرت السيارة سارع إلى العودة إلى ذلك المكان، كان يشاهد ما تبقى من دماء ضياء التي ملأت المكان بعد أن غطتها رمال العاصفة، مع ثلاث مقررات دراسية، وأخذ يبكي بصوت مرتفع وهو يتحدث إلى باقي أصدقائه من خلال الهاتف، وقبل أن يغادر المكان، لاحظ وجود وردة مرمية على حافة الطريق، هي الوردة ذاتها التي كان يحملها ضياء منذ قليل، وعندما حملها كانت قطرات الدماء تتساقط من أوراقها على رمال العاصفة...

٧

_ ابنتي نور، أبلغوني بأنك مريضة ولم تتمكني من الحضور إلى هنا،
أتمنى لك الشفاء العاجل، سوف يكون لكِ مستقبل كبير،
وستتمكنين من الوقوف في وجه الظالمين، وانتزاع حقوق
المظلومين منهم، وهذا يتطلب منك مضاعفة الجهود الدراسي،
والتعامل مع المحاضرات بجدية أكبر، وعدم إهمال أي من
جزئياتها

أتمنى لك النجاح والتوفيق دائماً الدكتور عصام.

أعادت نور قراءة رسالة الدكتور عصام عدة مرات، ولم تجب عن
استفسارات أسماء حول محتواها، وضعتها في حقيبتها وأقسمت
بأنها لن تفرط فيها مهما حصل .

حدثتهم عن جولتها برفقة ضياء بالأمس، وأخبرتهم بأن الجسر
المعلق أصبح مكاناً موحشاً ومخيفاً، وأرثهم بعضاً من تلك الصور
التي التقطتها للمكان.

لاحظت أسماء ونور بأن ريمما لم تكن على ما يرام، و لا تتحدث
كثيراً، تكتفي بالاستماع لأحاديثهم وتجيب بكلمة أو كلمتين، حتى
أنها لم تتحدث معها بشأن ذهابها مع ضياء يوم الأمس دون أن
تخبرها، وعندما استفسرت عن ذلك صباحاً لم تخبرها بشيء،
ولكن إشارة من أسماء جعلتها تسألها من جديد.

_ ماذا هنالك يا ريمما ؟

أفاقت من شرودها بعد أن سمعت اسمها، وأجابت:

_ ماذا؟

_ ريما، هل أنتِ بخير؟

سحبت ريما نفساً عميقاً، وحبسته لبعض الوقت، قبل أن تُطلق سراحه، تحدثت:

_ البارحة أبلغنا صاحب المنزل الذي نسكن فيه بضرورة إخلائه، فقد قرر بيعه ومغادرة البلد.

أكدت أسماء:

_ نعم، هذا ما حصل مؤخراً، فقد قام والدي ورفاقه المقيمين في الخارج بالأمر نفسه.

اقتربت منها نور وربتت على كتفها.

_ المنازل كثيرة، لا تهتمي بذلك يا ريما.

نظرت ريما نحوها نظرة تعرفها نور جيداً، فهي لا تتقبل فكرة أن تكون موضع تعاطف من حولها، سحبت نور يدها من على كتف ريما وعادت إلى جلستها.

_ وجد أخي البارحة منزلاً مناسباً لنا في حي الجبيلة وسننتقل للإقامة فيه غداً.

أخفضت نور رأسها وتحدثت:

_ لم يعد بإمكانني رؤيتك صباحاً في موقف الحافلات، ابتسمت لها
ريما وأجابتها:

_ لا مشكلة يا نور، هنالك من ينتظرك هناك كل صباح ..أليس
كذلك ؟

ضحك الثلاثة وتابعوا مشاهدة صور الجسر المعلق.

استغلت نور فترة انشغالهم بمشاهدة الصور في البحث عن ضياء
بين جموع الطلاب.

_ سوف أراك في الكافتيريا.

هذا كان آخر كلامه قبل أن يغلق الاتصال، وهذا يعني أنه سيأتي إلى
الجامعة مع رفاقه، لذلك أخبرها بأنه سيراها في الكافتيريا، أي أنه
لن ينتظرها تحت شجرة التين، وكان يحدث ذلك من حين إلى آخر،
ولكنه لم يحضر إلى الآن، حتى الطاولة التي يشغلها هو و رفاقه
كانت فارغة.

_ أرسلني لي هذه الصورة يا نور، إنها جميلة جداً.

تحدثت أسماء بذلك وهي تخرج هاتفها.

_ نعم، بالتأكيد.

أرسلت لها الصورة وبحثت عن اسم ضياء في سجل الأرقام،
ضغطت على زر الاتصال، مرت لحظات من الانتظار، فتح الخط
و تحدثت بصوت منخفض:

_ ضياء أين أنت، لقد تأخرت.

_ نعم.

لم يكن صوته، علمت بذلك ما إن سمعت الصوت.

_ من المتكلم؟

سببت نبرتها الحادة بعض الارتباك للمتكلم على الطرف الآخر، فلم يعد إجابة لسؤال كهذا.

_ نور، أنا باسل.

_ باسل؟؟؟ أين هو ضياء؟

_ يجب أن نلتقي ونتحدث.

أحست نور بأن مكروها ما قد أصابه، ولكنها استطاعت أن تتماسك.

_ باسل، أين أراك؟

ثم حملت حقيبتها وخرجت من الكافتيريا تتبعها ريما وأسماء وهم يحاولون الحديث إليها ومعرفة ما يجري ..



جلست ندى إلى جوار منزل إيميلي وهي تراقب أمور غير اعتيادية حدثت منذ الصباح.

عاد والدها إلى المنزل باكراً على غير العادة، ورفاق ضياء قاموا بزيارة قصيرة إلى منزلهم وغادروا سريعاً، أمها تبكي وتقبل ملابس ضياء المرمية على الأرض، ووالدها يمسك بسبخته و ينظر إلى صورته المعلقة على جدار الغرفة وكأن حديثاً ما يجري بينهما، اقتربت منه.

_ أبي، لماذا لم يأت ضياء مع رفاقه.

احتضنها وقبل بين عينيها، ولأول مرة شاهدت والدها يبكي كطفل صغير، استغربت ذلك ولم تبد أي ردة فعل، أجلسها على قدمه ومسح على رأسها.

_ لا تقلقي يا صغيرتي، ضياء سافر إلى مكان بعيد.

أعاد النظر إلى صورته المعلقة.

_ ولكنه سيعود، سيعود قريباً.

بدأت منزعة من كلمات والدها، قفزت من مكانها وعادت إلى غرفة ضياء، وجلست إلى جوار منزل إيميلي وأغلقت الباب وراءها، وأخذت تتحدث إليها بصوت منخفض.

_ إذاً سافر ضياء.

لم تجب الدمية، بل اكتفت بالنظر إليها، أحست ندى بأن إيميلي تحاول أن تهرر لضياء تصرفه غير المنطقي، بحجة أنه اضطر للمغادرة لوحده، صرخت بوجهها.

_ ولماذا لم يودعني إذاً.

لم تجد الدمية مبرراً لذلك، وعلى الرغم من محاولتها في تهدئة الأجواء، وامتصاص غضب ندى الذي عصف بها، إلى أن الأمور كانت تتجه إلى طريق مسدود.

_ أنا أعلم لماذا لم يخبرني بسفره، وأعلم جيداً ما الذي جعل ضياء لا يهتم بي في الفترة الأخيرة.

زمت إيميلي شفقتها وهي تراقب حديثها، لم يسبق لها أن شاهدت ندى تتكلم عنه بتلك الطريقة.

_ تلك الفتاة التي تعرف إليها في الجامعة، هي السبب، منذ أن بدأ يتحدث إليها لم يعد يكثر لأمر.

اعترضت إيميلي على حديثها وأخبرتها بأنها تبالغ كثيراً، قاطعتها ندى:

_ لم يعد يقص علي حكاية ليلي والذئب قبل النوم كما كان يفعل سابقاً، فهو يقضي الليل ممسك بهاتفه ويتحدث إليها ويضحك بصوت مرتفع، حتى أنه أجبرني على مقابلتها في إحدى المرات.

كانت الدمية تعلم ذلك جيداً، ولكنها تعلم أيضاً أن ضياء يحبها كثيراً، حتى أنها سمعته وهو يخبر الفتاة بذلك، سارعت إيميلي إلى تذكيرها بهذا الأمر.

_ نعم، هي نفسها أخبرتني بذلك عندما طلب مني ضياء الحديث إليها منذ ثلاثة أيام، ولكني لا أصدقها، ولا تحاولي أن تدافعي عنها يا إيميلي، إنه يحبها أكثر مني، وقد سمعته وهو يخبر والدتي بأنه يريد الزواج منها ولكنها رفضت ذلك وأجابته بأن ذلك لن يحصل قبل أن ينهي دراسته، وهي من تسببت بتراجع حالي الصحية في الفترة الأخيرة.

ثم رمقت الدمية بنظرة حادة، وتابعت:

_ حتى أنت يا إيميلي، تغيرت كثيراً.

ارتبكت الدمية وهي تتلقى نظرات ندى الحادة، دافعت الدمية عن نفسها بشراسة، فهي تقف إلى جانبها حتى النهاية.

_ إيميلي، تذكري جيداً حديثنا قبل بناء المنزل الجديد، والعهد الذي قطعته على نفسك بأنك ستنقلين لي الأحاديث التي تجري بينهما أثناء غيابي، لم تفعلي ذلك، بل وتدافعين عن تلك الفتاة كما لو أنها صديقتك.

لم تجد الدمية بدءاً من الاعتراف، وأخبرتها بأنها ستعمل على نقل جميع الأحاديث التي تجري بينهما دون زيادة أو نقصان.

أخذت ندى تبكي بصوت مرتفع وتصرخ.

_ لقد سافر بعيداً، لم يعد ينفع كل هذا الكلام.

٩

عاصفة مطرية أصابت المدينة، وسيارات مسرعة تروح وتجيء
وكأنها تفر من وحشة المكان، كانت نور تقف تحت شجرة التوت،
تحيط بها مجموعة كبيرة من بقع المياه وأوراق الأشجار المتحللة،
تستمع إلى صوت هطول الأمطار، وتنظر إلى ساعتها وتراقب دوران
عقاربها غير آبهة بالبرد الذي مزق كفيها، وكانت تحث نفسها على
الصبر والانتظار حتى النهاية.

_ لقد وعدني بأنه سيأتي، نعم سيأتي.

لاح لها خيال شخص ما، كان يقترب منها بخطوات سريعة، يتوقف
قليلاً ليريح قدمه التي بدت مصابة، وعندما يلتفت إلى الخلف
يتابع المسير بسرعة أكبر وكان أحدهم يطارده.

_ إنه ضياء.

بدا جسده هزياً وكأنه كبر عشرون عاماً في ليلة واحدة، تنتشر
بعض الخدوش الصغيرة في كل مكان يظهر من جسده، وبقع
صغيرة من الدماء تملأ ملابسه الممزقة، توقف قليلاً وأخذ ينظر
إليها، ثم تهاوى جسده على الأرض.

_ ضياء، ماذا أصابك ؟

حرك شفتيه بكلمات لم تفهمها، وكان واضحاً أنه تلقى ضربة شديدة على فكه السفلي جعلته يعاني صعوبة في النطق، وبعد جهد كبير استطاعت فهم كلمتين.

_ إنهم قادمون، ساعديني.

أشار لها إلى الموضع الذي أقبل منه، وعندما نظرت إلى المكان كان فارغاً تماماً.

_ عن ماذا تتحدث يا ضياء، لا يوجد أحد هنا.

أخذت تبكي وهي تنظر إلى آثار الحروق على قدميه، وقد تحول لونهما إلى اللون الأحمر المائل إلى السواد.

سمعت صوت صراخ من بعيد، مجموعة من الرجال يحملون أسلحة حربية و مصابيح، ويبحثون بين الاشجار، صرخ أحدهم:

_ إنه هنا..

سارع أفراد المجموعة إلى التوجه نحوهم، وجدوه مرعي على الأرض وإلى جانبه فتاة تبكي وتحاول مساعدته، اقترب منه أصغرهم سناً ووضع أذنه على صدر ضياء وتحدث إليهم:

_ ما زال يتنفس.

دخل قائد المجموعة في نوبة ضحك هستيرية وهو ينظر إلى ضياء،
ووضع قدمه على رأسه.

_ ألم أخبرك بأن إقامتك لدينا لم تنته بعد.

وجه نظره نحو الفتاة التي كانت ترتجف رعباً من نبرة صوته
المخيفة.

_ وأنتِ، تناسي أمر هذا الخائن، فقد حلت عليه لعنات الأرض
والسمااء مجتمعة.

حمله أربعة من أفراد المجموعة بعد أن أشار لهم الرجل بذلك
وانصرفوا من المكان.

_ تباً لكم، ضياء، أطلقوا سراحه أيها الجبناء.

لم يلتفتوا لصرخاتها، علّق أحدهم قدمه بحبل سميك، وربط
طرفه الآخر على حديد السيارة الخلفي، ثم انطلقت السيارة.

استيقظت من نومها وهي ترتجف خوفاً، و ما إن رأت ماريا تنظر
إليها حتى هدأت قليلاً، لاحظت بأن جبينها قد تبلل بقطرات العرق
الكثيفة، وبأن جسدها لا يزال يرتعش من تأثير ذلك الكابوس
المرعب.

منذ أن أخبرها باسل قبل ثلاثة أيام عما جرى لضياء، وهي تراه في أحلامها على هينات مختلفة، وجميعها مخيفة، رأته وهو يهوي من مكان مرتفع، وسمعت صوت طقطقة عظامه بعد ارتطام جسده العنيف على الأرض، ورأته في بحر مظلم، تتقاذفه أمواجه بعنف شديد، ويصرخ بأعلى صوته طالباً النجدة.

وعلى مدار الأيام الثلاث السابقة، كانت منزوية في غرفتها تبكي طول الوقت، تنظر إلى اللوحة الكريستالية الموضوعية على الرف الخشبي، وإلى جانب اللوحة الكريستالية، وضعت وردة حمراء ملطخة بكمية كبيرة من الدماء، وقد ذبلت أوراقها مؤخراً، ولكنها ما زالت تحافظ على شكلها الجميل، وقد شاهدتها والدتها في إحدى المرات وهي تتحدث إليها بصوت منخفض ...

أخرجت هاتفها وأعدت مشاهدة ذلك الشريط المصور، والذي يبدأ بضحكات ضياء ورفاقه وينتهي بمشهد مأساوي يتمثل بإلقاء ضياء على الأرض وضربه من قبل أربعة رجال، ثم شاهدت الصورة التي تجمع بينهما أمام مدخل الجسر المعلق وأخذت تتحدث إليه بعيداً عن أسماع مارياء، عاتبته في بادئ الأمر، ثم ضحكت له قليلاً، وبكت كثيراً في النهاية ...

لم يتمكن والدها من معرفة السبب في ذلك التغيير المفاجئ الذي طرأ على حياتها، والذي أدى إلى تدهور حالتها الصحية، استدعى

الطبيب زياد عدة مرات للكشف عليها، ولكن أجابته كانت في كل مرة.

_ لا حاجة لاستعمال الأدوية، سوف نكتفي ببعض المهدئات وستكون على ما يرام في قادم الأيام ..

غادرت خلود إلى حلب، وإلى غير رجعة كما قالت والدتها، أما العم إياد فقد كان يؤكد أنه سيبقى على تواصل دائم معهم، وبأنه سيحضر للاطمئنان عليهم كلما سنحت له الفرصة بذلك، أما ريما فقد انتقلت هي وعائلتها إلى المنزل الجديد، ولكن ذلك لم يمنع حضورها هي وأسماء من حين لآخر للاطمئنان على صحتها، وفي الأوقات التي يحدث فيها القتال في الخارج كانتا تكتفیان بالاتصال الهاتفي ..

الفصل الرابع

١

جميع البدايات جميلة، إلا بداية الحرب ..

الخميس ٢١ حزيران/يونيو ٢٠١٢

ازدحام مروري، وأصوات أبواق المركبات المترفعة، وشتائم سائقيها، وشوارع تنبض بالحياة، يرتبط جميع ذلك بحلول شهر حزيران/يونيو، بالإضافة إلى إقبال الطلاب الكبير على المكتبات ودور العبادة، فهم على موعد مع امتحانات الفصل الدراسي الثاني..

الجميع في المدينة ينتظر حزيران بفارغ الصبر ليمكنوا من الذهاب إلى نهر الفرات بعد انقطاع دام طوال أشهر الشتاء، ولكن فئة كانت تعد العدة لاستقبال حزيران بطريقة مختلفة تماماً ...

بدأت الأحداث تتطور سريعاً مع بداية الامتحان الدراسي، وأخذت الحرب تكشر عن أنيابها، انفجارات عنيفة تهز المدينة، وأصوات اشتباكات لم يسمع بمثلها من قبل تجري في كل مكان، وكان الحدث البارز هو مشاركة العربات الثقيلة والدبابات في المعارك داخل المدينة، وأُعتبر ذلك الحدث بمثابة بداية الحرب بشكل رسمي، وإن ما جرى طوال الأشهر الماضية من معارك ليلية متفرقة

هنا وهناك، لم يكن ذلك سوى أعداد بسيط لهذه الايام، ترافق ذلك مع حرب تصريحات متبادلة تجري من خلف الشاشات.

الجميع يتوعد ويقسم على الثأر.

والجميع يعد العدة داخل المدينة وخارجها

وحدها دير الزور ... تراقب ما يجري بصمت.

لم يقتصر الأمر على المعارك الليلية التي اعتادت عليها المدينة، بل امتدت في بعض المناطق على مدار الأربعة وعشرون ساعة، تجري هدنة غير معلنة مع خروج الطلاب من منازلهم لتقديم الامتحان، وما أن ينقضي الوقت المحدد للامتحان حتى تعود أصوات الرصاص والاشتباكات إلى الواجهة مجدداً، وعندما تهدأ المعارك ويغادر المحاربون ساحتها يسارع عمال النظافة إلى إزالة آثار المعارك وفتح الطرقات حتى يتسنى للسيارات الراغبة في مغادرة المنطقة المسير بلا عوائق، ويقوم موظفو شركة الكهرباء بإصلاح محطات التحويل التي تضررت، وبث الحياة في منازل المدينة حتى إشعار آخر، ومع تعقد الأمور داخل المدينة، ظهرت طوابير بشرية أمام الأفران، و أمام محلات المواد الغذائية، فالجميع يسعى للحصول على أكبر كمية ممكنة من الطعام، وتخزينها داخل المنازل خوفاً من الأيام ..

كانت سيارة والدها تقف على أحد الحواجز التي انتشرت بكثافة مؤخراً، لم يكن أمر إنشاء حاجز في تلك الفترة يتطلب مجهوداً كبيراً، يكفي بأن تكون لديك الرغبة في إنشاء حاجز خاص بك وستحصل على ذلك، فتقوم بتوقيف السيارات وتفتيشها، وتطالب أصحابها بإخراج بطاقتهم الشخصية، ومهما كانت صفتك، فلن يتجرأ أحد على توجيه أي سؤال وهو ينظر إلى السلاح بين يديك.

_ البطاقات الشخصية من فضلكم.

كان المتحدث شاب يضع على صدره شريطين متعاكسين من الرصاص، ويغطي رأسه بكوفية سوداء، أخذ ينظر إلى البطاقات الشخصية ويعاين وجوه أصحابها، استفسر الشاب:

_ أين وجهتكم ؟

كان الشاب يعاني من صعوبة في نطق حرف الراء، وهو يحاول تجنب الكلمات التي تحتوي على ذلك الحرف أثناء أجابته على جهاز اللاسلكي الذي يحمله بيده، صوته مألوفاً، لاحظت نور ذلك، نظرت إلى عيني الشاب، وهي كل ما يظهر من وجهه ، كان الشاب يبتسم من خلف ذلك اللثام وهو ينظر إلى والدها، حاولت تذكر ذلك الصوت، وأعدت النظر إلى عينيه مجدداً، قابل ذلك الشاب نظراتها بتجاهل تام ولم يبد أي ردة فعل، ولكنه وجه نظرة خاطفة

لريما الجالسة الى جوارها، وكانت الأخيرة منشغلة في مراجعة المقرر الدراسي.

_ إلى كلية الحقوق.

أجابه والدها وبدت عليه علامات الضجر من الانتظار، ضحك الشاب وأعاد له البطاقات الشخصية الثلاث، وتحدث:

_ يبدو أنك لم تعرفني يا عم، أليس كذلك ؟

نظر والدها إليه، وأجاب:

_ وكيف لي أن أتعرف إليك وأنت تخفي وجهك، متأسف، لا قدرة لي على معرفة الغيب.

اقترب الشاب وأدخل راسه إلى داخل السيارة، وأنزل اللثام حتى أسفل دقنه.

لم تحتج نور سوى لثانية واحدة حتى تأكدت شكوكها، بعد أن شاهدت ملامح وجهه، والتي تميزه شامة كبيرة أسفل عينه اليسرى، لقد كان ذلك الشاب هو ذاته الذي لجأ إلى منزلهم في وقت سابق عقب صلاة الجمعة بعد أن كانت تطارده سيارة الأمن ..

_ لن أنسى ذلك اليوم عندما استقبلتني في منزلك، أنا ممتن لك الى الأبد.

_ هذا واجب على الجميع.

لاحظ الشاب بأن والدها ينظر إلى قطعة السلاح بين يديه، تحدث الشاب وهو يخفيها خلف ظهره.

_ إن واجهتكم أي مشكلة هنا بإمكانني مساعدتكم، رافقتكم السلامة.

_ شكراً لك.

تابعت السيارة طريقها نحو الجامعة، ولم يعقب والدها على حديثه مع ذلك الشاب، اكتفى بتدخين السجائر والنظر إلى جانبي الطريق ومشاهدة آثار المعارك، إنه آخر يوم من أيام الامتحان، ولن يعد هنالك ضرورة لمغادرة المنزل بعد اليوم ، بل ولم يعد هناك ضرورة لهدنة جزئية، ويمكن لمحاربوا المدينة متابعة معاركهم متى شاءوا ذلك، الشوارع فارغة إلا من بعض الطلبة الخائفين، وهم يسرون بشكل جماعي دون الحاجة إلى إجراء الأحاديث، ينظرون في كل مكان خوفاً من مفاجأة قد تحدث بأية لحظة، ويتوقع حدوثها في كل مكان.

_ انظري هناك.

صرخت ريماء، وكانت تشير إلى جمهرة من الناس يلتفون حول شيء ما، إنه أول تجمع بشري شاهدهته نور منذ بداية الامتحان، خطر

لها بأن جثة ما تسببت بذلك التجمع، ومن يدري، لعلها مجموعة من الجثث، وعندما اقتربت السيارة من المكان كان المشهد مرعباً....

ثلاث دبابات مدمرة وشاحنة عسكرية كبيرة الحجم تعيق حركة السيارات المتجهة نحو طريق دمشق، فقد شهد شارع بورسعيد في المنطقة الممتدة من مركز انطلاق البولمان مروراً بحي الموظفين وحتى دوار الدلة أولى المعارك الحقيقية داخل المدينة، شاركت فيها دبابات وأسلحة ثقيلة أخرى، ونتج عنها الكثير من الخراب في المنازل المحيطة بالشارع.

كانت نور تنظر إلى مجموعة من الأطفال وهم يلعبون فوق إحدى الدبابات المدمرة، ومجموعة أخرى خرجوا من داخلها، وكانوا يتنافسون فيما بينهم على حيازة قطع حديدية مختلفة الأحجام، حصلوا عليها من داخل الدبابة، وبدأ أنهم حريصون على إخراج أكبر كمية ممكنة منها، فيما كانت تنتشر مجموعات الفضوليين في كل مكان، يستمعون إلى أحداث معركة الأمس ممن شهدوها، أما والدها فقد أثارت فضوله قطعة حديدية فضية اللون على شكل وعاء صغير، مرمية إلى جانب الطريق.

_ إنها قذيفة دبابة فارغة، لقد خدمت في سلاح المشاة وأعرفها جيداً وما زلت أذكر ...

قاطعته نور

_ لم يعد لدينا وقت كافي يا أبي، دعنا نغادر هذا المكان المخيف بسرعة.

ضحكت ريما وأجابت:

_ تفاءلي يا نور، قريباً ستصبح جميع شوارع المدينة بهذا الشكل الجميل.

استجاب لها والدها سريعاً، وتابعت السيارة طريقها نحو الجامعة

....

٢

_ حفاظاً على سلامتكم، عليكم بالالتزام بالتعليمات، الجميع يريد تقديم الامتحان بأسرع ما يمكن والعودة إلى المنزل، لا أريد أي أحاديث أو همسات، دعونا ننهي العام الدراسي بصورة مثالية.

ردد أحد المراقبين تلك الكلمات عندما سمع بعض الهمسات بين الطلاب.

فكرت نور في حديثه، ورددت كلماته الأخيرة في ذهنها عدة مرات، بعد أن أضافت عليها لمسة خاصة.

_ دعونا ننهي العام الدراسي بصورة مثالية ... ونودع بعضنا بعضاً، ولا مانع من التقاط بعض الصور التذكارية، من يعلم، لعلنا لن نلتقي مجدداً.

كانت تعلم بأنها ستاتي إلى قاعة الامتحان لوضع اسمها الثلاثي على ورقة الإجابة، وتسليمها بيضاء خالية من الإجابات، حالها حال الكثير من الأسئلة التي تراودها طوال الوقت، ولا تجد لها أي تفسير أو إجابة، ولحسن حظها، فقد قرر الدكتور خالد جعل مادة " قانون العقوبات " مؤتمتة لهذا الفصل، مما مكنها من التفاعل مع ورقة الإجابة، بدون الحاجة إلى قراءة الأسئلة، أشارت على أحد

الخيارات الثلاثة لكل سؤال بشكل عشوائي، ثم نظرت إلى شكلها النهائي الذي كان مليئاً بالإشارات الصغيرة، ثم نظرت إلى الساعة نظرة خاطفة.

_ لقد حان الوقت.

سلمت ورقتها ثم غادرت القاعة بعد أن مضى نصف ساعة على بداية الامتحان، وهي المدة التي يجبر فيها الجميع على البقاء داخل القاعة، قبل السماح لهم بتسليم أوراقهم والمغادرة.

كانت الكافتيريا فارغة تماماً، الجميع داخل القاعات، ومن ينتهي من تقديم الامتحان يسارع إلى مغادرة الكلية والعودة إلى المنزل، أغراها هدوء المكان، وقررت الجلوس لعدة دقائق على مقعد قريب من باب الكافتيريا الخارجي.

ترك رحيل ضياء المفاجئ جرحاً كبيراً لم تتمكن من تجاوزه، قلت أحاديثها مع الجميع، ولم تعد لديها الرغبة في فعل أي شيء سوى انتظار عودته.

كانت ترى ضياء أينما أدارت عينيها، وتشتم رائحة عطره المميزة التي تنبعث في جميع أرجاء الكافتيريا، هنا كان يجلس هو ورفاقه، وكان يختار هذا المقعد، وهنا اقترب منها وحاول الحديث إليها في إحدى المرات، وعلى هذه الطاولة سمعت صوته للمرة الأولى، ثم سارعت إلى مسح دموعها بأكماتها بعد أن شاهدت أسماء وأحمد

يجتازان المبنى الثاني نحو الكافتيريا، يشكلان ثنائياً جميلاً، وكثيراً ما يجلسان في إحدى زوايا الكافتيريا ويتبادلان الأحاديث، كان أحمد يقلب صفحات المقرر للتأكد من صحة اختياراته التي وضعها على ورقة الإجابة، تحدث بصوت مرتفع.

_ نعم، نعم، جميعها صحيحة يا أسماء.

اقتربت منها أسماء، وتحدثت:

_ نور، لماذا غادرت القاعة ؟

أجابت نور بلامبالاة:

_ أجل، الأسئلة بسيطة ولا تتطلب كثيراً من الوقت.

زمت أسماء شففتيها وقبل أن تجيبها صدر صوت انفجار عنيف تحركت له بعض مقاعد الكافتيريا، تلا ذلك الانفجار صوت إطلاق نار كثيف، يبدو أن دقائق السلام شارفت على النهاية، لذلك فقد قرر المحاربون خوض جولة تمهيدية لتذكير الجميع بضرورة العودة إلى المنازل، وهذا ما تحقق، اندفعت جموع الطلاب من جهة القاعات نحو الخارج، والجميع يبحث عن الحافلات العائدة إلى المدينة، وعلى حين غرة، ارتطم أحد الشبان المندفعين إلى الخارج بأحمد، وعلى إثر ذلك الارتطام العنيف سقط أحمد على الأرض وأمسك بيده وبدا أنها تعرضت لإصابة، نهض الشاب ولم

يلتفت، بل تابع طريقه وكأن شيئاً لم يكن، وفيما كانت أسماء تساعد أحمد على النهوض، أقبلت ريما وغادر الجميع على وجه السرعة..

شكل الصعود إلى الحافلة مسألة حياة أو موت لدى جميع المتواجدين، وهذا ما تسبب باكتظاظ بشري رهيب داخل الحافلة وعلى أبوابها، ولم يعد هنالك مجال لأي حركة، فتح أحد الشبان النافذة الصغيرة في الأعلى ليتجدد هواء الحافلة بعد أن أشار له السائق بذلك، وماهي إلا لحظات حتى سارت بهم الحافلة، هدأت الضوضاء قليلاً، وأخذ كل واحد منهم موقعه والجميع يخشى المكابح المفاجئة، وعلى بعد أمتار قليلة كانت جموع من الطلاب ممن لم يحالفهم الحظ في الدخول إلى المركبة، يسرون نحو المدينة ويضعون المقررات على رؤوسهم لتقيهم لسعات الشمس الحارقة، راقبت نور الدبابات والمجنزرات الثقيلة التي بدأت بالانتشار في كل مكان، وبدا أن معركة الأمس لم تنته بعد، فالحرب جولات، وفوز أحد الأطراف بجولة لا يعني حسم الحرب لصالحه.

توقفت الحافلة عند أحد الحواجز العسكرية في مدخل المدينة، ركنها السائق إلى يسار الطريق وأطفالها كما طلب منه عناصر الحاجز، وأخبر الركاب الذين لم يتمكنوا من الحصول على المقاعد بضرورة النزول من الحافلة ليتسنى لرجل الأمن القيام بعمله بأريحية، وما إن أتم السائق حديثه حتى صعد إلى الحافلة رجل

يرتدي بدلة عسكرية ويضع سلاحاً على كتفه، بدأ بتدقيق البطاقات الشخصية، والتأكد من صحة دفتر خدمة العلم بالنسبة للشبان، والركاب يراقبون ذلك بصمت مطبق، لاحظت أسماء ارتباك أحمد وتوتره الشديد، وعلى اعتبار أن مكان جلوسهم كان في آخر الحافلة، ولا يزال هناك متسع من الوقت قبل وصول رجل الأمن، اقتربت منه قليلاً وهمست له:

_ أحمد، هل هنالك مشكلة ؟

_ البطاقة الشخصية يا أسماء، البطاقة الشخصية.

ورفع بطاقته الشخصية.

_ يبدو أنها قد كسرت عندما ارتطم بي ذلك الشاب منذ قليل.

قال تلك الكلمات وهو يرتجف، وكان ينظر إلى رجل الأمن وهو يقترب بهدوء.

_ أحمد ، لماذا لم ...

ثم تحدث رجل الأمن بنبرة حادة وطلب من الجميع التزام الصمت، وهذا ما قطع على أسماء حديثها، كان أحمد يفكر في جدوى هروبه من الحافلة، التفت يمناً ويسرة، ولكنه تراجع عن تلك الفكرة بعد أن شاهد رجال الأمن ينتشرون في كل مكان، استسلم لقدره، بينما كان الثلاثة ينظرون إليه ويراقبون تصبب

قطرات العرق من أعلى رأسه، كان رجل الأمن يتقدم منهم، يدقق البطاقات ويعيدها إلى أصحابها دون أن ينظر إليهم، ويزداد توتر أحمد كلما تقدم منهم خطوة إضافية، سلمت له ربما البطاقات الثلاثة، نظر إلى الصور الموضوعة على البطاقات ورفع رأسه ونظر إليهم كل واحدة على حدى ليطابق بين الصورتين، أعادها لهم بعد أن تأكد أن كل شيء على ما يرام، امتدت يده إلى أحمد وهو ينتظر أن يخرج له بطاقته، لاحظ ارتبাকে وقطرات العرق التي ملأت جبينه

_ أين هي بطاقتك ؟

وكانه فقد جميع حواسه دفعة واحدة، لم يتمكن أحمد من الإجابة على سؤاله.

تغيرت ملامح الرجل وظهرت عليه علامات الغضب، ونتيجة لذلك أخرج له البطاقة وقد قسمت إلى نصفين.

ابتسم الرجل عندما شاهد البطاقة.

_ هذا سبب خوفك أليس كذلك؟؟ أين هو دفتر خدمة العلم.

أعادت تلك الكلمات الأمل إلى أحمد، أخرج له الدفتر على عجل وناوله إياه، كان يدقق فيه ويقارن بين صورته الشخصية المطبوعة على الأوراق وبين شكله الحالي، لاحظ أنه يرتدي ذات الثياب في

الصورتين، ولكنه يبصر وجهه متألقاً خالياً من الاصفرار والارتباك، مع اختلاف بسيط في تسريحة الشعر، تحدث الرجل.

_ اتبعني.

نهضت أسماء وحاولت التدخل ومساعدته، ولكن ربما أعادتها إلى مقعدها وأشارت لها بالسكوت، نزلاً إلى الأسفل واتجها إلى الضابط المسؤول عن الحاجز، أمره بالوقوف على حافة الطريق وعدم الاقتراب من كرسي الضابط الكبير، حيث يجلس رفقة اثنين من العناصر، تحدث رجل الأمن إليه مشيراً بإصبعه إلى أحمد، أمره بالاقتراب ملوحاً له بيده، كان الضابط الكبير يتحدث بصوت مرتفع أربع جميع من كان داخل الحافلة، بينما كان أحمد ينظر إلى الأسفل وركبته ترتجفان، وقد تجمدت الدماء في عروقه، ثم صفعه على وجهه ورفع يده إلى السائق مشيراً له بالمغادرة ...

كتمت أسماء دموعها، وكانت أسماء لا تظهر دموعها لأحد، يبكي فيها كل شيء سوى عينيها، نُظهر تماسكها وصلابتها حتى وإن كانت النيران مشتعلة في أعماقها، لاحظوا شرودها وغيابها عما يجري حولها، كان مطبوعاً في ذهن الجميع صوت أحمد وخوفه وصرخاته قبل مغادرة الحافلة، وصوت تلك الصفعة المرعبة.

_ لقد وصلتِ إلى المنزل يا أسماء، ألا تودين النزول ؟

_ نعم، حسناً.

قالت تلك الكلمات وهي تهيم بالنزول.

تحركت المركبة بعد أن نزلت أسماء رفقة ثلاثة آخرين، لم تلتفت وتشير لصديقاتها بيدها كما اعتادت أن تفعل، بل اكتفت بالسير باتجاه المنزل مخفضة رأسها ...

٣

ارتدت ندى ملابسها وحزمت آخر حقيبة من الحقائب الموضوعة أمام باب المنزل، وتحت إصرار والدتها الشديد قامت بتفكيك منزل إيميلي الجديد، والذي لم يمض وقت طويل على تشييده، أخبرها والدها بأنهم سيذهبون إلى منزل إسرائ حيث سيقيمون فترة من الزمن، سارعت إلى زف ذلك النبأ السار إلى سكان السلة واحتفلوا جميعاً بذلك عبر الإسراع في تفكيك المنزل.

تكفلت مجموعة من شبان الحي بمساعدة جميل في حمل حقائبه ووضعها داخل السيارة، وانتقلوا لمساعدة باقي العائلات التي ستغادر المنطقة مستغلين فترة توقف إطلاق النار، تحدثت ندى:

_ لماذا يغادر الجميع يا أبي؟

ابتسم لها وقبّل بين عينيها.

_ ذاهبون إلى زيارة أقربائهم كما نفعل نحن يا صغيرتي.

وبشكل مفاجئ، خرج " أيمن " جارهم في المبنى من منزله مسرعاً وهو يصرخ بأعلى صوته وتوجه نحو سيارته.

_ لن أغادر منزلي مهما حصل، ولو اجتمعت كل جيوش الأرض.

وأمسك بالحقائب وأخذ يلقيها باتجاه باب المنزل، تبعته زوجته وأبناؤه وأحاطوا به محاولين تهدئته، صرخ مجدداً:

_ حتى وإن كان الثمن هو حياتي كما تتحدثون، هنا عشت، وهنا أموت، وسوف أدفن هنا في منزلي.

ثم توجه إلى أهل المنطقة وأخذ يصرخ

_ اذهبوا بعيداً، هيا، ماذا تنتظرون ؟

وجثا على ركبتيه وأخذ يبكي، شاهدت ندى والدها ومجموعة كبيرة من رجال الحارة وهم يحملونه إلى منزله بعد أن رفض النهوض وأصر على البقاء في وسط الشارع ..

كانت والدتها تجمع بعض الأشياء الضرورية وتبحث عن حقيبة إضافية فارغة، ولكن جميل تدخل.

_ لا داعي إلى حمل المزيد من الأشياء، الأمور ستتحسن، وسنعود إلى منزلنا قريباً.

وقام بإعادة بعضها إلى أماكنها القديمة، ثم غادرت سيارة جميل الحارة إلى غير رجعة، بعد أن شهدت منطقة " الموظفين " معارك عنيفة أجبرتهم على البقاء داخل المنزل لثلاثة أيام متواصلة دون كهرباء، ودون أي اتصال مع العالم الخارجي، مع تعرض المنطقة لقصف بالقذائف الثقيلة، تساقطت على المنازل بشكل عشوائي،

ما أدى لأضرار مادية كبيرة وبعض الإصابات بين ساكنيها، قرر جميل مغادرة المنطقة عند توقف المعارك، والتوجه إلى منزل صديقه نزار، والد إسرائ، وكان يقيم في أطراف المدينة الغربية، في منطقة " الضاحية " وهي بعيدة نسبياً عن مناطق المواجهات.

كانت السيارة تقطع شوارع المدينة البائسة، وكانت ندى تراقب التجمعات البشرية حول المنازل المدمرة، لم تكن كثيرة، ولكن الفوضى تسيطر على الجميع، أما والدها فقد كان يفكر في أن المعارك قد تُستأنف في أي لحظة، وأخذ يدعو الله بأن يتمكن من إنقاذ عائلته وإيصالهم قبل اشتعالها في طريقهم إلى منزل نزار، توقفت السيارة على أحد الحواجز، كان خالياً إلا من رجل يحمل سلاحه ويقف في منتصف الطريق، وعلامات الخوف ظاهرة على وجهه المُدور، قام بتفتيش سيارتهم و تفقد بطاقتهم الشخصية، وعندما انتهى من ذلك سأل جميل عن وجهته، أخبره بأنه يريد الذهاب بعائلته إلى الضاحية، تحدث الرجل:

_ أمامك خيارين لا ثالث لهما، إما أن تعود الآن إلى منزلك على وجه السرعة، والبقاء هناك إلى أن تهدأ الأمور قليلاً، وإما أن تُغير هذا الطريق، فهو مليء بالقناصة.

ثم أخبره عن الطرق الخالية من وجود القناصين، وطلب منه إضاءة أنوار السيارة الأربعة والسير بهدوء تام، ثم لوح له بيده متمنياً له السلامة، اتبع جميل نصائح الرجل وسار في الطرق التي

أشار إليها، ولكن ذلك لم يكن ليمنع قدراً كان مُحتم عليهم، فالحذر لا يمنع القدر، عندما وصلت سيارتهم إلى نهاية أحد التقاطعات، كانت هناك سيارة أخرى تسير أمامهم، انتفضت الأرض بجانبها وبصقت كتلة من اللهب الأحمر، تكفلت بتمزيق السيارة وبعثرتها إلى أجزاء متناثرة، دُعر جميل وعائلته من هول المشهد، اخترقت رصاصة مفاجئة بلور السيارة الخلفي، وتتابع إطلاق النار، كانت ندى تصرخ بشدة، ووالدتها تحتضنها بكتتا يديها، وجميل يحاول الفرار من المكان بأقل الخسائر، دوى انفجار شديد، تلاه صمت مطبق، ثم حل الظلام ..

٤

تسير نور بخطوات متأنية رفقة والدها في طريق مظلم، تغطيه سحب غير مرئية من دخان الإطارات المشتعلة والحرائق المجهولة، ويسمع صوت نباح كلاب من مكان بعيد، جسدها يرتجف وتسمع صوت اصطكاك أسنانها بفعل لسعات البرد التي تتعرض لها دون التسلح بالملابس الكافية، كان والدها يرتدي ملابس خضراء مخصصة للعمليات الجراحية، وعليها بقع كبيرة لم تتمكن من معرفة ماهيتها، غير أنها لم تكترث للأمر، فقد شغلته وحشة المكان الذي لا يعرف له بداية ولا نهاية، نظرت إلى والدها ولاحظت بأنه حافي القدمين.

_ أين نحن يا أبي ؟

تابع مسيره ولم يلتفت إليها، أمسكت بيده وضغطت عليها هرباً من شيء غامض ارتطمت به قدمها، وعندما التفتت إلى الخلف لتتحقق منه، كانت هناك أسطوانة حديدية مدببة من أحد طرفيها، وفي طرفها الآخر ثلاث شفرات صغيرة، وما لبثت أن ابتلعتها ظلمة المكان قبل أن تتحقق منها بشكل كافي، التفتت إلى والدها وكان يشير بيده إلى الأمام، وعندما نظرت إلى حيث أشار كان المشهد قد تغير تماماً..

نيران تخدم وتشتعل، وشيء ما على هيئة إنسان بدين يقف شامخاً في منتصف الطريق، يضع يده على خاصرته وينظر نحوهم، أفزعها ذلك المشهد وصرخت:

_ ما هذا ؟ لماذا لا تجيبني يا أبي ؟ إلى أين نحن ذاهبون ؟؟

بدا أنه ضاق ذرعاً بأسئلتها المتكررة، ولكنه لم يظهر لها ذلك، واكتفى بالصمت، ومع اقترابهم من نهاية الطريق توضحت لها ملامح ذلك الشيء الذي كان ينتصب في منتصف الطريق، لم يكن إنساناً كما ظنت بادئ الأمر، صرخت:

_ الدلة..

كانت ساحة الدلة هي مدخل دير الزور الجنوبي، يحيط بها مسجد و مجموعة من الأبنية السكنية وتتفرع منها عدة طرق رئيسية، وهي ساحة مستديرة تضم نافورة مياه كبيرة الحجم، تتوسطها دلة ضخمة ترمز إلى كرم سكان المدينة وترحبهم بالزائرين.

كانت الساحة مظلمة على غير العادة، والمشهد من بعيد يوحي بأن هناك شيء ما يجري في المنطقة، وعندما وصلت إلى الساحة كاد أن يقضى عليها من هول الصدمة، النيران تلتهم الأبنية السكنية المجاورة للساحة، وصوت صراخ ساكنيها وهم يحاولون إخمادها، وعشرات الجثث مرمية على الأرض، ورائحة الموت تنبعث من كل مكان..

هربت من إحدى الجثث المرمية على الطريق وهي تصرخ بأعلى صوتها إلى داخل الساحة، لم يكن المشهد في الداخل أفضل حالاً، غيرت الدلة لونها الذهبي الجميل إلى اللون الأسود الكئيب، معلنة الحداد على أبناء المدينة المنكوبة، وقد علق عليها ثلاثة شبان من أيديهم عبر جنازير حديدية قصيرة، بعد أن هُشمت رؤوسهم وتبدلت ملامحها، وكان شلال من الدماء يتدفق من مصبها الطويل نحو البركة المليئة بالأشلاء التي تطفوا فوق الدماء.

غادرها عقلها من هول المشهد، وفقدت القدرة على الصراخ بعد أن ارتطمت قدمها بإحدى الجثث المرمية، ركضت بأقصى سرعة مبتعدة نحو الخارج، وقبل أن تغادر محيط الساحة أمسكت يد بقدمها وحاولت سحبها، أحست بارتجاف اليد وبرودتها.

_ نور، ساعديني.

استجمع ذلك الرجل كل ما أوتي من قوة ونطق بهذه الكلمات، وعندما سمعت ذلك الصوت سارعت إلى الالتفات.

_ ضياء!

سُمعت صرختها خارج الساحة، كان ذلك الشخص هو ضياء، وقد أصيب برصاصة في صدره وأخرى أسفل ظهره، وكان يلفظ أنفاسه الأخيرة، لم يظهر والدها أي ردة فعل لما يجري حوله، كان يجلس على الأرض يراقب ابنته وهي تحتضن ذلك الشاب المضرج بدمائه.

_ يا إلهي، ضياء، ضياء ..

استطاع أن يمنحها ابتسامة صغيرة لم تستمر سوى لثانيتين، شعرت بارتخاء عضلاته وشخصت عيناه نحو السماء

فتحت عينيها، وجالت ببصرها في أرجاء الغرفة، ثم وضعت يدها على جبهتها وأخرجت نفساً عميقاً، بعد أن اطمأنت إلى أن ما شاهدته منذ قليل كان في العالم الآخر، وإن كان عالمها ليس أفضل حالاً من ذلك العالم المخيف .

أمسكت بوردة ضياء الحمراء وأخذت تنظر إليها، كانت تنبعث منها رائحة عطر ممزوجة برائحة الدماء، وعلى الرغم من تغير ألوانها الجميلة، فقد أصبحت تميل إلى اللون الأسود القاتم ، إلا أنها كانت تراها أجمل من ورود الكون مجتمعة، وكانت تعطرها كل يوم مرتين، أمسكت بورقة بيضاء وقلم أسود منزوع الغطاء، وأخذت تدون ..

عزيزي ضياء..

لقد وقعت الحرب .. هكذا ببساطة شديدة

وكما أخبرتك سابقاً، ما كنا نعيشه من معارك واشتباكات، لم يكن إلا تمهيد لهذه الحرب، حسناً، أعلم جيداً بأنك لا تحب الحديث بشأن الحرب الآن، وسابقاً أيضاً، ولكن ذلك لا يهم، لقد وقعت

الحرب على أي حال، وفرضت نفسها على الجميع، ولم يعد هناك مجال للحديث عن غيرها ...

فيما مضى، كنت أفكر كثيراً في شكل هذه الحرب ومدى بشاعتها، وقمت بوضع عدة فرضيات تتعلق بالطريقة التي ستبدأ فيها، ولا أخفيك، كنت أرغب في أن تشاركني تلك التنبؤات، ولكنك تنفي حدوث الحرب أصلاً، فضلاً عن الحديث في تفاصيلها، والآن اعترف لك يا عزيزي بأني فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً، فما حدث لم يكن بالحسبان.

" لقد بدأت الحرب برحيلك يا ضياء "

لم يخطر لي بأن الحرب ستبدأ بهذه الطريقة الشنيعة، وبأنك سترحل بهذه البساطة، دون أن تمنحني لحظة وداع واحدة، ودون أن أراك للمرة الأخيرة.

لا أعلم من سينتصر في هذه الحرب، ولكنني بالتأكيد أول الخاسرين فيها، وها أنا ذا أعلن استسلامي، وأرغب في أن أرفع راية بيضاء ليراهم الجميع، لتتوقف الحرب، وتُحَقن الكثير من الدماء، ويعود الجميع إلى منازلهم، فأنا الخاسرة، والجميع منتصرون، ولكن لا جدوى، كل ذلك لن يعيدك إلي يا حبيبي ..

٥

توالت الأيام بصورة سريعة، كانت متشابهة لا يفرق بينها سوى أعداد الشهداء التي تتزايد يوماً بعد يوم، كل شيء على حاله، لم تتوقف الحرب كما ظن البعض بادئ الأمر، وجميع الدلائل تشير إلى أنها ستمكث هنا طويلاً ..

كانت ندى تنتظر الساعة الحادية عشر بفارغ الصبر، وهو الموعد الذي حدده الطبيب لمغادرتهم المستشفى، نجوا من ذلك الاشتباك بأعجوبة، أصيب الثلاثة بكمية لا بأس بها من الشظايا وقطع البلور المتحطمة، ولحسن حظهم، لم تُصَب الشظايا مواضع خطيرة في أجسادهم، وأجمع من رأى السيارة التي كانوا يستقلونها بأن القدر منحهم فرصة للبقاء على قيد الحياة، وبأنهم محظوظون جداً، فالسيارة بدت بعد الحادث وكأنها قد خرجت من الجحيم، تم اسعافهم إلى المستشفى، و بقوا هناك بناء على رغبة الأطباء، للتأكد من سلامتهم، وقد حان موعد مغادرتهم الآن، لم يعودوا إلى منزلهم، بل ولن يعودوا إلى هناك ثانياً، فقد دُمر بفعل القصف العنيف الذي تتعرض له منطقتهم، حاله حال الكثير من منازل المدينة، تابعوا رحلتهم إلى منزل نزار بعد أن توقفت لثلاث أيام، وها هي ندى تلتقي بإسراء بعد غياب طويل، وقد أعدت إسراء مكان خاص لندى إلى جوارها على السرير، قضوا أول إسبوع دون

أحاديث كثيرة بناء على طلب والدة إسرائ، وبررت ذلك بأن ندى متعبة وتحتاج إلى راحة وهدوء، ولكن تحسن حالتها الصحية فتح المجال للطفلتين في اللعب سوياً، والتحدث لوقت طويل ..

كانت إسرائ تنصت إلى حديث ندى، وتظهر على وجهها تعابير الخوف والدهشة، كان الحديث يدور حول آخر معركة جرت بالقرب من منزلهم قبل أن يغادروا المنطقة.

_ ما إن سمعنا صوت الدبابات وهي تقترب من الشارع الرئيسي حتى قام والدي بنقلنا إلى سرداب جارنا أبو علاء، كان السرداب يعج بالنساء والأطفال، جلست أنا وإيميلي إلى جانب والدتي في إحدى زوايا السرداب، وكانت تمسك صورة ضياء بيدها اليسرى، وعلى الرغم من ظلمة السرداب إلى أنها كانت تنظر إلى الصورة من حين إلى آخر، وبيدها اليمنى سبحة بيضاء، تحرك شفيتها بأذكار وأدعية غير مسموعة، والدموع تنحدر من عينيها بغزارة، أما إيميلي فقد كانت تراقب ما يجري بلامبالاة.

قاطعتها إسرائ بنبرة فضولية:

_ أين هو ضياء ؟ لماذا لم يأت معكم ؟

ولاحظت ارتباك ندى.

_ لقد سافر، لم يحدثني إلى أين، ومتى سيعود، ولكن والدي أخبرني بأنه سيعود قريباً.

شجعته إسراء على متابعة حديثها.

_ حسناً، وماذا حدث بعد ذلك.

رفعت ندى رأسها وتابعت:

_ بدأت المعركة مع وصول أول دبابة إلى نهاية الشارع، اختلطت أصوات الرصاص والقذائف والقنابل، وامتلاً المكان برائحة البارود المنبعثة من النافذة الصغيرة في أقصى زاوية السرداب، وكنا نستمع إلى أصوات مرعبة بعد كل انفجار..

زجاج يتحطم..

وصدى قطع حديدية تتناثر في كل مكان

وصرخات استغاثة يطلقها الجرحى والمصابين.

أما داخل السرداب، فقد ازداد توافد النساء والأطفال مع اشتداد حدة المعركة، وما إن تلتقط إحداهن أنفاسها حتى تروي لنا ما رأته في الخارج من دماء ودمار وجثث مرمية في كل مكان، سيطرت على المكان حالة من الفوضى، بكاء وصراخ مع كل صوت قادم من

الخارج، وفي لحظة مجنونة سمعنا صرخة مرعبة من جهة الباب الخارجي.

_ لقد أصيب علاء، أحضروا سيارة الإسعاف.

سقطت شقيقته على الأرض، وأخذ جسدها ينتفض ويرتعش، وكأنها تتعرض لصعقات كهربائية عنيفة، كانت تصرخ بأعلى صوتها وتضرب وجهها بكفيها، تجمع حولها بعض النساء محاولين تهدئتها، فيما كانت إحدى الفتيات تفرغ ما في جوفها عند الباب المؤدي إلى الخارج، وقد اجتاحتها نوبة سعال شديدة ..

صمتت للحظات وكأنها تحاول استعادة تلك الذكريات الأليمة مجدداً.

_ شعرت بخوف شديد، كانت يداي ترتجفان بشدة وأنا أستمع إلى صوت الرجال في الخارج وهم يحاولون إنقاذ علاء، بعد أن نجحوا في سحب جسده من أمام باب المنزل، أمسكت بيدي أمي وأخذت أبكي بشدة، وشعرت بأننا لن نتمكن من مغادرة ذلك المكان ونحن أحياء، قاطعتها إسراء مجدداً.

_ يا إلهي!

تابعت ندى:

_ وعلى عكس المتوقع، سمعنا صوت الدبابات وهي تبتعد عن المكان، حسناً، هذا غير منطقي، ولكنه حدث، وماهي إلا دقائق قليلة حتى توقف إطلاق النار وعاد الهدوء إلى المنطقة، حملتني أمي إلى خارج السرداب، وكان والدي ينتظرنا عند باب المبنى الخارجي، وعندما وصلت إلى منتصف الشارع رأيت أشياء مفرجة.

أجساد غطيت بأقمشة طويلة، ورجال يحاولون حمل المصابين وإسعافهم، وإطفاء الحرائق المشتعلة، وكان المكان يعج بقطع حديدية حادة وغريبة الشكل، وقد احتفظت بقطعتين منها قبل مغادرتنا المنزل.

أخرجت لها من منزل إيميلي الجديد قطعة حديدية صغيرة مستطيلة الشكل، ذات حواف حادة، وقطعة أخرى ذهبية اللون على هيئة قلم صغير، قالت إسراء:

_ شظية ورساصة فارغة ؟

ثم أمسكت بها وأخذت قلبها وتلمس أطرافها، وكأنها حجرة نيزك سقطت من الفضاء، تابعت ندى وهي تضحك:

_ لقد كانت حرارتها مرتفعة عندما حملتها أول مرة، ورغم ذلك، لم أفكر في إعادتها إلى مكانها، بل حملتها معي وقد تركت أثرها على يدي منذ ذلك الحين.

وقبل أن تتمكن إسرائ من رؤية أثر الشظية على كف ندى، باغتهم صوت من خارج الغرفة وقطع حديثهم.

_ توقفوا عن الحديث، لقد حان وقت النوم ..

تحدثت ندى:

_ نعم، يجب أن ننام الآن.

أجابت إسرائ:

_ ولكنك لم تروي لي تفاصيل حادث السيارة الأخير.

_ سوف أحدثك عن ذلك في الصباح، دعينا ننام الآن ..

في هذه الأثناء كان جميل يتجهز للذهاب إلى مقابلة أحد الأشخاص الذي تربطه علاقة جيدة بصديقه نزار، لطلب مساعدته في قضية ضياء، وقد أخبره نزار بأن الرجل سيساعده كما فعل مع الكثيرين " فكلمته مسموعة "

منذ خروج جميل من المستشفى، كان يسعى جاهداً للتبع أخبار ضياء، والبحث عنه في كل مكان، وبحكم عمله في المكتبة، كانت

لديه علاقات صداقة مع كثير من المسؤولين في البلد، ومن خلالهم، استطاع الوصول إلى مكان اعتقاله، ولكنه لم يتحصل على أي معلومة إضافية عن تهمته أو الظروف التي يعيشها الآن، ولم يكن ذلك مُستغرباً، فالبحث عن أي معلومة تتعلق بمُعتقل ما يشابه البحث عن إبرة في غابة من القش، وقد يتضرر السائل أياً كانت درجة قرابته من المُعتقل .

ذهبوا إلى منزله مشياً على الأقدام، فمنزله قريب، ولا حاجة لاستخدام السيارة، استقبلهم الرجل بحفاوة، وأجرى اتصالاً هاتفياً مع أحد الأشخاص، كانت الإجابة أن ينتظر اتصال بعد دقائق، كان جميل خلالها يُعد نفسه لكل الاحتمالات، وهمس لنزار بأن يطلب من صديقه إعادة الاتصال بذاك الشخص من جديد، ولكن نزار رفض ذلك وطالبه بالهدوء لعدة دقائق حتى يتبين كل شيء، لم يتأخر الرد كثيراً، وكانت الإجابة بأن يحظر جميل إلى السجن في الحال، وعلى الفور، استقل الثلاثة سيارة نزار وتوجهوا إلى السجن الذي يُحتجز فيه ضياء، طلبوا منهم التوقف أمام الباب الرئيسي، وبعد لحظات جاء الإذن بالسماح لجميل فقط بالدخول، رافقه إلى الداخل عنصريين، لم يتحدثا إليه، كانا يسيران أمامه بصمت، و كانت الخواطر المزعجة تعصف برأسه، السجن من الداخل كئيب، ولكنه ليس مخيف كما يتحدث الجميع عن القصص التي تجري خلف جدرانها، كانت الأنظار تلاحقه وهو يجتاز ممراً طويلاً في آخره عدة مكاتب موزعة على جانبيه، يبدو أنه بدأ يتعرف على

حقيقة المكان، وهذه أولى المشاهد، خرج من أحد المكاتب ثلاثة عناصر يقتادون شاباً في مُقتبل العمر، يعاني من إصابة في إحدى قدميه، وكان الثلاثة يتناوبون على ضربه، ويركزون ضرباتهم على موضع إصابته، شعر بانقباض في صدره، ثم زال الانقباض بعد أن تأكد بأن ذلك الشاب لم يكن هو ضياء ..

وصلوا إلى أولى المكاتب، طرق أحد العنصرين بابه، ثم فتح الباب وأشار لجميل بالدخول ..

كان المكتب فارغاً تقريباً، خزانة حديدية بداخلها مجموعة من المصنفات، ومنضدة يجلس خلفها رجل يخلو وجهه من كل الملامح التي تبعث على الطمأنينة، كان يقرأ من إحدى الأوراق، ثم رفع رأسه وتحدث:

_ هل أنت والد ضياء؟

أجاب جميل وقد نصحه صديقه نزار بأن يختصر من إجاباته قدر الإمكان.

_ نعم..

رفع الهاتف وتحدث:

_ ضياء جميل.

كان جميل يختلس النظر إلى الباب، وأخيراً سيلتقي بضياء من جديد.

_ كيف سيكون شكله ؟

وهل سأتعرف عليه ؟

والأهم من كل ذلك، هل سيسمحون له بمرافقتي إلى المنزل ؟

فُتِح الباب، لم يكن هناك ضياء، دخل عُصْرِيح يحمل كيس بلاستيكي ومجموعة أوراق، ووضعها على المنضدة، ثم ضرب الأرض بقدمه وأدى التحية للضابط. وانصرف، نظر الضابط إلى جميل وتحدث:

_ ضياء توفي قبل اسبوعين من الآن، هذه ملابسه وأغراضه الشخصية، وهذه بطاقته.

مات ضياء، انهار جميل على أرض المكتب، دخل العنصريين وحملوه إلى الخارج مع الكيس البلاستيكي، وأوصلاه إلى سيارة نزار وصديقه ..

الفصل الخامس

١

شهر ونصف انقضت على نهاية الامتحانات، كانت كفيلة بتغيير كافة أشكال الحياة في المدينة، فقد امتدت الحرب إلى غالبية أحيائها، وانتشر القناصة في كل مكان، ينشرون الرعب عبر رصاصاتهم المفاجئة، وأصبح القصف بالطائرات و المدافع الثقيلة خبر يتكرر مع كل نشرة أخبار، يتوقف القتال في بعض الأحيان ليلتقط محاربو المدينة أنفاسهم، ويتبادلون الشاي والسجائر، ثم يستأنف بعد أن يمل أحدهما من حالة الهدوء المزعجة، أصبح الخوف والرعب يلزم جميع المقيمين في المدينة، ونتيجة لذلك أجبر قسم كبير من المدنيين على مغادرة منازلهم، متوجهين إلى الأحياء الغربية، وبعضهم فضّل مغادرة المدينة إلى الريف و باقي المحافظات التي لم تصلها نيران الحرب

...

استطاعت نور إقناع والدها بضرورة البقاء في المنزل، وقد أخبرته بأن مغادرتهم إلى الخارج قد تؤثر سلباً على حالتها الصحية التي تدهورت مؤخراً، أما والدتها فقد اقتنعت بأن الحرب امتدت إلى جميع مدن البلاد، ولم يعد هناك حاجة لمغادرة المنزل، ويعود الفضل في ذلك إلى النشرات الإخبارية، وإلى هاتف العم إياد الذي أكد لهم بأن المعارك اندلعت في حلب منذ عدة أيام، ومؤخراً،

انشغل والدها في تأمين المواد الغذائية الأساسية، ومحاولة إيصالها إلى جميع الأحياء السكنية، خاصة تلك التي تجري فيها المعارك طوال الوقت، وقد لاقى صعوبة في جلبها من الخارج وصعوبة أكبر في توزيعها في الداخل نتيجة لقطع الطرقات وانتشار القناصة .

غادرت أسماء وأسرتهما إلى دولة الكويت منذ أربعة أيام حيث يقيم والدها، وكانت نور تتلقى اتصالاتها كل صباح، أما ريما فقد كان منزلها الجديد يقع في إحدى أخطر محاور القتال داخل المدينة، وعلى الرغم من تساقط القذائف واشتداد المعارك من حولهم إلا أن عائلتها رفضت فكرة الخروج من المنزل، ومنذ عدة أيام عرضت الشاشة مقطوعاً مصوراً يظهر احتراق منزل في نفس المبنى الذي تقيم فيه ريما وأسرتهما بعد أن أصابته قذيفة مدفع هاون، وعندما اتصلت بها نور للاطمئنان على سلامتها اقتصرت إجابتها على كلمتين فقط.

_ اطمئني، أنا بخير.

أوقفها انعكاس صورتها على المرآة المعلقة على خزانة الملابس، أخذت تتأمل في التغيير الذي طرأ على هيئتها، منذ أن ذهب ضياء، لم يخطر لها أن تقف أمام المرآة كما كانت تفعل سابقاً، ومع خبر وفاته الأخير، ارتدت السواد حداداً على رحيله، وكانت تبكي طوال الوقت، فقدت الأشياء ألوانها الحقيقية، وعادت كما لو أنها ترى

الحياة باللون الأسود والأبيض فقط، ظهر لها وجه شاحب متعب، وعينان منطفئتان ذهب عنهما لمعانهما، لم يكن ذلك يههما كثيراً، تابعت خطواتها نحو السرير وهي تبادل ماريًا نظراتها الصامتة ..

أخرجت هاتفها وأخذت تشاهد ذلك الشريط المصور مجدداً، والذي يُظهر ضياء رفقة أصدقائه وهم يصورون العاصفة الغبارية ويحاولون إيقاف إحدى المركبات، يُظهر الشريط أيضاً صوت سيارة إسعاف تجري بسرعة كبيرة، ومن خلفها سيارة بيضاء اللون، أشار العداد الرقمي أسفل الشاشة إلى الثانية الخامسة والعشرين، يضحك ضياء بشدة وهو يتحدث إلى أصدقائه لعدة لحظات قبل أن تتوجه الكاميرا نحو أمواج الغبار من جديد، أمسكت بالوردة الحمراء التي فقدت ثلاث ورقات منذ عدة أيام، عندما ارتجفت يدها بفعل أحد الانفجارات المفاجئة، ولكنها مازالت جميلة، وما زالت تفوح بالعطر والدماء " إنها وردة بلون الدم " .

شاهدت الفيديو ثلاث مرات على التوالي، ومع نهاية الفيديو الثالث كانت تغط في نوم عميق ...

_ منازل مدمرة، وأخرى آيلة للسقوط، تنبعث منها روائح الجثث المتحللة، ولا يستطع أحد الاقتراب منها و انتشالها وسط إطلاق النار الكثيف ...

وبشكل مفاجئ، حصل وقف إطلاق نار غير مععلن، يبدو أن المحاربين قرروا أخذ قسط من الراحة، بل وتبادل السجائر وأكواب الشاي استعداداً للجولة القادمة، ولكن تأخرت استراحة المقاتلين على غير العادة، وهي استراحة طويلة بالمقارنة مع الأيام السابقة، فقد دامت لأكثر من نصف ساعة، الجميع ينتظر توقف إطلاق النار بفارغ الصبر، لإخراج الجثث من تحت الأنقاض، أو إسعاف المصابين وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، إلا أنها لم تشهد أحداً، فالشوارع فارغة تماماً إلا من قطة بيضاء جائعة تتنقل بين أكياس القمامة المتكدسة على جانبي الطريق، ومجموعة من الطيور تقف على شريط نحاسي يربط بين عمودين كهربائيين.

— ضياء، ما الذي يحدث؟

كان ضياء ينقل بصره بحثاً عن أي حركة أو صوت، ولكن لا شيء، وكأنهم يسيرون في مدينة أشباح.

— لا أعلم يا نور، ولكن المدينة تبدو فارغة لسبب ما.

وصلوا إلى أحد روافد النهر التي تمر من وسط المدينة، كانت مياهه حمراء قاتمة، تطفو فيها العديد من الأجساد، وتنبعث منها رائحة كريهة، سارعوا إلى مغادرة المكان والابتعاد عن هذا المشهد المفزع، وصلوا إلى ساحة كبيرة تتوسطها ثلاثة سيوف عملاقة، وقد ثبتت بطريقة متعكسة، تحدثت نور:

_ ضياء، انظر هناك.

كانت تشير بيدها نحو مجموعة من الرجال، كانوا جالسين على بعد أمتار قليلة منهم، وكانوا منشغلين بإعداد أسلحتهم وتجهيزها استعداداً لخوض جولة قتال جديدة.

سارعوا إلى الابتعاد عن الساحة والدخول إلى أحد التجمعات السكنية، وعندما اقتربوا من أحد الأبنية لفت انتباه ضياء وجود شيء غريب جعله يتوقف عن متابعة طريقه، كان ينظر إلى صور لأشخاص متفاوتي الأعمار، ملصقة على باب المدخل المؤدي إلى داخل أحد الأبنية.

_ ما هذا ؟

صرخت نور وهي تشير إلى مدخل بناء آخر.

_ هناك صور أخرى يا ضياء.

لم يكن لديه أي تفسير لذلك، أشار لها بالتزام الصمت بعد أن أمسك بيدها وسحبها إلى داخل أحد المباني.

_ هنالك أحد ما هنا، لا تحدثي أي حركة.

خرج رجل برفقة عائلته وهم يحملون أكياس سوداء كبيرة الحجم، وضعوها في صندوق السيارة الخلفي، وقبل أن تغادر السيارة قام

الرجل بإخراج مجموعة صور له ولأفراد عائلته، وقام بتعليقها على مدخل البناء وهو يمسح دموعه ..

_ إنهم يعلقون صورهم ويغادرون.

أمسكت بيده وأخذت تبكي وترتجف، غير مصدقة لما شاهدت لتوها، ثم انطفأت صورة ضياء، وبدأ يتلاشى من أمامها شيئاً فشيئاً، حتى اختفى ..

دوى صوت انفجار هائل تكفل بإيقاظها من نومها وإعادتها إلى الحياة مجدداً، كانت تستمع إلى ضربات قلبها وتسارع أنفاسها، ما زالت صورة ضياء ماثلة أمامها ولم تغادرها بعد، ولا تزال يداها تحتفظ بلمس كفه الخشن، مرت لحظات من الصمت المخيف الذي يعقب أي انفجار مماثل، وما أن زال صدهاء حتى فتحت أبواب جهنم في وسط المدينة ...

_ يغادرك أحدهم، فتنهار في داخلك أشياء عملت طويلاً على الحفاظ عليها، وتجد أن كل شيء قد تغير بطريقة شنيعة، تفقد الأشياء لذتها وتوهجها، وتفضل البقاء وحيداً لأطول فترة ممكنة، تبحث في غياهب الذكريات عن لحظة صفاء جمعت بينكما، ويراودك طيفه فيظهر لك في كل مكان، تراه في ملامح وجهك المتعب، وفي ذبولك، وفي صمتك، وفي لون الحزن الذي يرافقك دائماً.

ضياء..

نور

١٥ أيار/ مايو ٢٠١٢

كانت نور تنظر إلى تلك الصورة الجميلة، والتي تجمع بين اسميهما ضمن قلب كبير على شجرة الصفصاف، كان ذلك التاريخ مميزاً ويعني لها الكثير، تتذكر جميع تفاصيله المثيرة، ولكنها لم تكن تعلم بأنه سيكون اليوم الأخير الذي يجمعها به ..

تحدثت إلى الوردة الحمراء، ثم أشركت ماريا في الحديث، كانت تفعل ذلك طوال الوقت، وفي النهاية، قررت الذهاب إلى ضياء والحديث إليه بشكل مباشر.

أمسكت بورقة وقلم وبدأت تكتب..

_ عزيزي ضياء..

اشتقت لك كثيراً، رغم أنني التقيتك قبل عدة دقائق في عالم الظلام، لم تتغير كثيراً يا حبيبي، ما زالت عيناك جميلتين رغم الذبول الذي أصابها، وما زال قلبي يرتجف عندما أنظر إليهما.

هل تعلم ... تراودني تساؤلات كثيرة، ولا أجد لها أية إجابة، سوف تشاركني الليلة في الإجابة على بعضها، أليس كذلك ؟؟

سمعت صوت غارة جوية عنيفة، أعقبها إطلاق نار كثيف بمدافع رشاشة مضادة للطيران، واشتعلت جميع جبهات المدينة دفعة واحدة.

_ لماذا رحلت ؟

لا يهمني كثيراً معرفة الطريقة التي رحلت بها، سواء أن قام أحدهم بانتزاعك من بين يدي واقتيادك بعيداً عني رغماً عنك، أو إن كان هذا الابتعاد هو خيارك الأخير بعد تفكير عميق، فالأمر عندي سيان، ألم تخبرني في يوم مضى بأني سأجرك إلى جانبي دائماً ؟؟

أين أنت الآن ؟

ولماذا أنا وحيدة ؟

نظرت إلى الكلمات التي كتبتها، وفكرت في إجابة ضياء على هكذا سؤال، تابعت الكتابة.

_ لماذا لم نُخلق طيورًا ؟

طيور بأحجام كبيرة، لنا أجنحة بيضاء، أو أياً كان لونها، نحلق بها بعيداً عن الجميع، بعيداً عن الحرب، بعيداً عن الدماء، بعيداً عن الألم، ونعود بعد أن يحل السلام.

ارتجفت يدها بفعل سلسلة انفجارات هزت المدينة، وفكرت في التوقف عن الكتابة والذهاب إلى غرفة والدها، ولكنها تابعت.

_ هل ستعود ؟

هذا ما أفكر به طوال الوقت، على الرغم من أنهم أخبروني بأنك انتقلت إلى العالم الآخر، حسناً، أعلم بأن الموتى لا يعودون، ولكني لا أصدقهم يا ضياء، إن روعي لم تنطفئ بعد، مازلت أشعر بوجودك هنا في كل مكان، في غرفتي، وتحت شجرة التوت، وفي الجامعة، لم أضع صورتك إلى جانب اللوحة الكريستالية بعد، لا تهتم للسواد الذي أرتديه الآن، فهناك أسباب كثيرة تدعونا لارتداء السواد، ولست أياً منها يا حبيبي، دعنا منهم، ومن أحاديثهم التي لا أصدقها، سوف تعود إلي في النهاية، وستمسح دموعي التي ما جفت للحظة واحدة منذ أن رحلت، أحاول تخيل شكل ذلك اليوم الذي أتمكن فيه من رؤيتك مرة أخرى، سوف تعود الطيور إلى أعشاشها مجدداً، وينبت الورد، وبيتسم الجميع، وتعود للأشياء ألوانها الحقيقية، لا تلك المزيفة التي أراها الآن، لقد بدأت الحرب برحيلك بعيداً عني يا ضياء، ورحيلك سبب كافٍ لقيام حرب ملعونة كهذه التي نعيشها الآن، ولكنها ستنتهي عند عودتك إلي من جديد، فكر في ذلك جيداً، سوف تتوقف الحرب عند عودتك إلي يا ضياء.

ثم حملت الوردة الحمراء وضممتها إلى صدرها، وأغمضت عينيها مستحضرة طيفه، ثم حملت القلم من جديد.

_ هنالك أسئلة كثيرة أخرى يا ضياء ولكني اكتفيت بهذا القدر، ولست مجبراً على الإجابة على أي منها، يكفيني حضورك إلى هنا، لا بد من أنك الآن متعب ومرهق، ولا وقت لديك للاستماع إلى هذه الترهات، تحاول الفرار من الضوضاء، والحصول على قليلٍ من الراحة.

أما عنا نحن..

جميعنا على قيد الحياة حتى إشعار آخر يا عزيزي، لا يعلم أي منا متى تطرق باب منزله إحدى قذائف الحرب، لتجعل منه مادة إعلامية تتقاذفها القنوات الإخبارية، أو أن تصيبه رصاصة قناص محترف يجيد إصابة هدفه بدقة، نعيش في سجن صغير اسمه المنزل، وسجن كبير اسمه دير الزور..

نعم دير الزور، أعلم بأنك اشتقت لها كثيراً، نحن أيضاً اشتقنا إلى دير الزور التي نعرفها يا ضياء، ستتفاجأ عند عودتك بالجنون الذي أصابها، سوف تراها شاحبة كئيبة، تبكي أبناءها الذين رحلوا بعيداً عنها، وتحتضن حدائقها من استشهد منهم.

أصبحت شوارعها وحاراتها محاور قتال لا تهدأ، لا بد من أنك تستمع الآن إلى هذه الأصوات المرعبة وتتساءل عما يجري في الخارج ..

إذاً، دعني أخبرك يا عزيزي، نحن في الخارج، ولا نعلم ماذا يجري حولنا ...

توقف إطلاق النار بعد أن استمر لساعتين، وضعت الورقة داخل مقرر اللغة العربية إلى جانب مجموعة من الرسائل المشابهة، ثم استلقت على سريها وأخذت تبكي بصوت مرتفع ..

٢

ماذا لو لم يكن هناك فراق، ولا موت، ولا يغادرنا من نحبههم إلى عالم لا يمكن الوصول إليه، كيف سيصبح شكل الحياة لو كتب الخلود للجميع ؟

إنه القدر، وسهامه التي لا تُخطئ قيد أنملة، ينتزع الجميع من حولنا، واحداً تلو الآخر، ويبقي لنا أحاديثهم و ذكرياتهم التي نعيش عليها فيما تبقى لنا من أيام في هذه الحياة، قبل أن تُصيبنا إحدى تلك السهام، وينطفئ كل شيء إلى الأبد.

الدمى جميعها في السلة البلاستيكية، بما في ذلك ايميلي، وإسراء مستلقية على سريرها لا تتحدث، لم تكن ندى ترغب في رؤية أحد، بل ولم يكن لديها القدرة على ذلك أيضاً، تجلس تحت خزانة إسراء وتمسك بصورة ضياء، تبكي، وقد تبدلت ملامحها الطفولية كثيراً خلال الأيام السابقة، وبدت طفلة بوجه عجوز في أواخر عمرها، كان حولها مجموعة من المناديل الورقية المبللة، الجميع يكذب عليها، لم يكن ضياء مسافراً، بل كان في السجن، وهذا ما علمته مؤخراً أثناء نواح والدتها طوال فترة عزاءه، لقد صدقتهم أول مرة عندما أخبروها بأنه سافر، وتبين لاحقاً بأن ذلك لم يكن سوى كذبة كبيرة، فهل ستصدقهم الآن وهم يخبرونها بأنه قد مات.

حسناً، كان ضياءً في السجن، سلمت ندى بتلك الحقيقة، ولكن السؤال الذي كان يراودها الآن هو.

كيف مات ضياء ؟

القنوات الإخبارية تنقل خبر كل قذيفة تسقط على المدينة، ولكنها لم تسمع خبر يتحدث عن تعرض السجن للقصف، والسجن بعيد عن مناطق الاشتباكات، إذًا.

_ كيف مات ضياء ؟

كانت تترقب عودته في أي لحظة، والآن لن يعود، كانت تريد إخباره بمشاكسات الدمى والمشاكل التي تحصل بينهم، ولكن ذلك لم يعد ممكناً، كانت تريد إخباره كم اشتاقت إليه، ولكنها لن تستطع أن تراه ثانية لتفعل كل ذلك.

_ ضياء، ضياء..

صرخت بذلك، ثم خرجت منها أنة طويلة، غطت وجهها بكفيها ودخلت في نوبة بكاء شديدة، انتهت بنومها.

رن جرس المنزل، وكان ذلك الجرس لا يهدأ، فالمعزين يتوافدون باستمرار، فتح نزار الباب، يقف على الطرف الآخر باسل صديق ضياء، إلى جانبه شاب حليق الشعر، نحيف، ورجل في العقد السادس من عمره، دعاهم نزار للدخول، ودخل الجميع إلى الصالة

التي أعدت لاستقبال المعزين، وقف جميل للسلام عليهم، ولكن شيء غريباً حدث، ما إن دخل باسل ورأى جميل، حتى بدأ بالبكاء بصوت مرتفع، ثم اقترب منه واحتضنه بطريقة غير طبيعية، كان نزار ينظر إلى ذلك الشاب الغريب، جلس إلى جانب جميل ولم يعزي بضياء، يبدو أن هناك شيء يريد قوله، تحدث باسل وهو يشير إلى الشاب موجهاً حديثه إلى جميل.

_ هذا أحمد، تم الإفراج عنه بالأمس، يريد إخباركم بشيء هام.

وجه الجميع أنظارهم إلى أحمد، بدأ بالحديث:

_ تم الإفراج عني عند الساعة الثامنة صباحاً بعد شهر ونصف قضيتها في المعتقل، كان ضياء معي طوال هذه المدة، حدثني كثيراً عنكم، وعندما علمنا بخبر الإفراج عني طلب مني القدوم إليكم وإخباركم بأنه بصحة جيدة، ويبلغكم سلامه، ولكني علمت مؤخراً بأن الذهاب إلى المنطقة التي تقيمون فيها شبه مستحيل، فلجأت إلى الخطة البديلة التي حدثني بها ضياء، وهي التواصل مع باسل.

وقف جميل، وتحدث:

_ ماذا، متى أخبرك بذلك؟

أجاب الشاب:

_ أول الأمس.

صرخ جميل مجدداً:

_ كيف ذلك، لقد أبلغوني بأنه قد مات

وقف الشاب.

_ كلا، ضياء لم يمّت، لقد كنا سوياً حتى أول الأمس.

فتحت والدة ضياء باب الغرفة ودخلت، أمسكت كتف الشاب وهزته، ثم صرخت:

_ أعد ما قلته الآن، هيا، أعد كل شيء

تفاجأ أحمد بذلك، ولكنه تحدث:

_ ضياء لم يمّت، أقسم بذلك، لقد كنا سوياً حتى أول الأمس.

هنا تدخل الرجل، وكان هو والد أحمد.

_ سمعت مؤخراً ببعض الحالات المشابهة لحالة ضياء، نعم، هم يُخبرون الأهل بأن أبنتهم قد توفي في السجن، حتى لا يُكثرون في السؤال عنه، وقد حدث ذلك مع أحد أقربائي.

عقب الشاب :

_ لقد أخبرني بأن موعد الافراج عني يُصادف نفس يوم ميلاد شقيقته الصغيرة ندى، وطلب مني أن أهنئها بعيد ميلادها.

سجد جميل على الأرض، وأخذ يبكي و يحمد الله بأن ابنه ما زال على قيد الحياة، أما زوجته، فقد دخلت بنوبة بكاء، أيقظت ندى وأخبرتها بالبشرى، وتحول جو العزاء إلى فرح وسرور.

وبعد أن هدأ الجميع، جلس والد أحمد إلى جوار جميل، وأخذ يحدثه عن الطريقة التي استطاع من خلالها إخراج ابنه من المعتقل، أعطاه رقم هاتف، وطلب منه الاتصال به في الحال، وأخبره بأن يلي كل الشروط التي ستفرض عليه لإنقاذ ضياء، وأشار له إلى طبيعة تلك الشروط.

_ سوف يطلبون منك مبلغًا كبيرًا من المال.

ثم ودعهم الرجل وابنه وغادرا المنزل.

سارع جميل في الاتصال بذلك الرقم، كان المتحدث على الطرف الآخر رجل له صوت خشن، وبلا مقدمات، أخبره بقصة ضياء، وبأنه بريء من كل التهم التي وجهت له، وطلب منه مساعدته في إنقاذه، أجاب الرجل:

_ لا يهمني إن كان بريئاً أم لا، ما يهمني هو المال، إن كان هناك مال، فلا مشكلة.

تحدث جميل:

_ لا مشكلة في المال.

اجاب الرجل بكلمتين:

_ خمسة ملايين.

صمت، تحدث جميل.

_ موافق.

أجاب الرجل:

_ حسناً، سوف يصلك العنوان، أحضر النقود.

تحدث جميل:

_ ولكن متى سيخرج ضياء ..ألو ألو..

بدا واضحاً بأن طرف المكالمة الآخر اكتفى بهذا القدر، فقرر إنهاء المكالمة، وصلت رسالة فيها عنوان وبعض التفاصيل الإضافية، تساءل نزار.

_ ماذا؟

وضع جميل يده على رأسه ونظر إلى الأرض.

_ طلبوا مبلغاً كبيراً من المال، ويتوجب علينا سداده بعد غدٍ عند الساعة الخامسة عصراً، ولكنهم رفضوا أن يحددوا كيفية التسليم

...

أخذ نزار يحلل الموقف ويفكر في جميع الاحتمالات.

_ هنالك شيء مبهم، لماذا رفضوا الإفصاح عن طريقة التسليم؟

رفع جميل رأسه وأجاب بلهجة يطغى عليها الانكسار:

_ لا أعلم.

شعر نزار بتعقد الأمور، ولا مجال لإعادة الاتصال مجدداً، فهؤلاء لا يحبون الأحاديث الطويلة.

_ إذاً ما العمل؟

أخذ نفساً عميقاً وأخرجه في لحظة واحدة

_ سوف أحصل على المبلغ بأي طريقة كانت، حتى ولو اضطررت إلى بيع المنزل والمكتبة، وكل ما أملك، المهم أن يعود ضياء بأي ثمن ..

فاته بأن منزله قد تهدم، تحدثت زوجته:

_ أرجوكم، أعيدوا إليّ ضياء، فليذهب المال، ويذهب كل شيء، أرجوكم.

ضمتها زوجة نزار وأخذت تهدئها، تحدث نزار:

_ سوف نحصل على المبلغ يا صديقي، ولكن قبل ذلك، نحتاج إلى بعض الهدوء حتى يتسنى لنا ايجاد حل لهذه المشكلة ..

خرج نزار وجميل إلى الشرفة، وتركوا الجميع خلفهم، فكرت ندى كثيراً، عودة ضياء مرتبطة بتأمين مبلغ مالي كبير، والدها يفكر في بيع المكتبة، وهي التي ورثها عن أبيه و عمل جاهداً طوال حياته على الحفاظ عليها حتى في أحلك الظروف، ها هو الآن يتخلى عنها ببساطة شديدة، إذ لا مجال للانتظار كثيراً، توجهت إلى الخزانة الصغيرة الخاصة بإسراء، فتحت الجانب الأيمن منها وهو القسم الذي خصص لملابسها منذ مجيئهم إلى منزل إسراء، أخرجت اسطوانة حديدية متوسطة الحجم، عانت من ثقل وزنها وهي تحملها نحو سلة الألعاب، وضعتها إلى جانب ساندي وبيلا وأخذت تجر السلة نحو خارج الغرفة.

تفاجأ جميل وصديقه اللذين كانا منشغلين بمتابعة حديثهم بدخول الطفلة المفاجئ وهي تجر سلة الألعاب إلى الشرفة حيث كانا يقفان، أخرجت حصالة نقود عليها صورة توم وجيري من وسط السلة، وكانت تخزن فيها الكثير من النقود طوال الفترة السابقة، اتجهت نحو والدها الذي كان يقلب أنظاره دهشة بينها وبين صديقه.

_ هذه النقود لا أحتاج إليها يا أبي، يمكنك إخراجها والاستفادة منها، أما عن هذه الدمى فقد قررت الاكتفاء بواحدة منها وبيع ما تبقى لمساعدة ضياء.

وأشارت له نحو إيميلي وحملت الدمية بين كفيها وعادت إلى غرفة إسراء ..

٣

كانت نور تنظر من خلال نافذتها الصغيرة وتراقب ما يجري في الخارج، لم ترَ أحداً، اختفت صرخات الأطفال، وأصوات الباعة المتجولين، وجلسات الجيران حول المنازل، واستبدل كل ذلك بصمت مخيف، وهدوء لم تعد عليه الحارة في هكذا توقيت، كان دكان العم عبد الرحمن مغلقاً، وقد مضى على استشهاد ابنه الوحيد ثلاثة أيام، وعلى عكس الأيام السابقة، كان اليوم هادئاً منذ الصباح الباكر، ولم تجرِ أي معارك أو قصف متبادل، لعل ذلك يعود إلى نفاذ الذخيرة لدى المحاربين، وذلك ليس مستغرباً، فالمعركة الأخيرة التي جرت مساء أمس احتاجت إلى كميات هائلة من الذخيرة، فكرت نور في أن سيارات الذخيرة في طريقها إلى المدينة الآن، قبل أن يعتد المحاربون على حالة السلام هذه.

_ عزيزي ضياء.

لن أزعجك اليوم بأسئلتني، سوف أتركها لوقت آخر، أما الآن، أريد أن أخبرك بأني اشتقت لك كثيراً.

اشتقت لأحاديثك الجميلة.

لتلك الأوقات التي قضيناها سوياً.

لعينيك ..

_ أنا بخير، لا تشغل نفسك بالسؤال ..

لم تكمل الكتابة، وأخذت تفكر في هذه الكلمات، وبعد عدة لحظات تابعت:

_ حسناً يا عزيزي، هذه الكذبة انتشرت مؤخراً بين الجميع، ولا أظن بأننا سنحاسب عليها، لست بخير، جميعنا لسنا بخير يا ضياء، ولكن ذلك لا يهم، فالحرب مستمرة على أي حال، ولن يوقفها إلا شيء واحد، وهو عودتك إلي، صحيح، هل فكرت في هذا الأمر كما طلبت منك في وقت سابق، أم أنك لم تجد الوقت الكافي لقراءة رسالتي؟؟

لقد أخبرتك في رسالتي تلك بأني لم أصدق حديثهم عن موتك، وهم أنفسهم أخبروني بأن ذلك الخبر كان كاذباً، وها أنا الآن أخبرك بأنك ستعود، وأرى عودتك قد اقتربت أكثر من أي وقت سابق ..

توقفت عن الكتابة بعد طرق باب غرفتها.

_ نوار، الطعام جاهز، هيا.

إنه صوت والدها، لم يفتح باب الغرفة كما يفعل عادة، بل سمعت صوت خطواته وهو يبتعد نحو الغرفة الكبيرة.

عادت إلى الورقة مجدداً..

_ أراك لاحقاً، إلى اللقاء يا حبيبي.

أغلقت الورقة ووضعتها داخل مقرر اللغة العربية إلى جانب عدة رسائل مشابهة، حملت ماريا والتحقت بوالدها، وما إن دخلت إلى الغرفة الكبيرة حتى قفزت كاتيا نحوها وأخذت تموء وتلاعب قدميها، ألقت التحية على الجميع وجلست إلى جانب والدها.

كانت البلازما تعرض صوراً مباشرة لسقوط القذائف على المنازل في وسط المدينة، وسحب من الغبار والدخان الأسود تغطي سماءها، كان المذيع يتلقى اتصالات كثيفة من كل المدن السورية التي اشتعلت الحرب فيها مؤخراً، ولا يمنح وقت كافي للمتصل حتى يتسنى للجميع المشاركة.

_ هيا يا نور.

استغلت والدتها وجود الأستاذ جابر وزوجته في منزلهم وحثتها على الالتحاق بالمائدة على أمل أن تستجيب لهم هذه المرة وتشاركهم الطعام.

نهض الجميع نحو الغرفة القريبة من المطبخ، لم يعد بالإمكان تناول الطعام في الغرفة الكبيرة كما كانوا يفعلون سابقاً، والسبب في ذلك هو المشاهد المؤلمة التي تعرضها البلازما، وعندما قرروا

إطفاءها أثناء تناول الطعام أكدت لهم والدتها بأنها لا تزال ترى مشاهد الدماء والأشلاء بمجرد النظر إلى الشاشة

تحدث والدها وهو يشرع في تناول الطعام

_ نعلم جيداً بأن البلاد مقبلة على أيام عصيبة، ولكننا لم نكن نظن بأن الأمور ستسوء إلى هذا الحد، قصف وتشريد ومذابح يومية، ولا نعلم إن كانت الأمور ستقف عند هذا الحد.

قفزت كاتيا من على الخزانة الصغيرة، مصدرة صوت مواء مطول وهي تنظر إلى قطعة اللحم بين يدي سارة، أجاب الأستاذ جابر:

_ منذ اليوم الأول كان متوقعاً بأن تنزلق البلاد إلى حرب مدمرة لا تبقي ولا تذر، وسأخبرك بشيء.

عدل من جلسته موجهًا حديثه للجميع ...

_ كان من الأفضل أن تحل الأمور بطريقة ما تجنب البلاد كل هذا الدمار، قبل أن تصل الأمور إلى المواجهة المباشرة بالسلاح، أما الآن، فقد وقع المحذور، ولم يعد خيار التراجع وارداً في حسابات كلا الطرفين، أما عن بشاعة الحرب ونتائجها فيحدها جهل محاربيها وشراستهم.

حركت كاتيا ذيلها يميناً ويساراً إعجاباً بحديث الأستاذ جابر وجلست عند قدميه وهي تنظر إلى الأعلى وتحرك أذنها جهة

الصوت، عادت المعارك في الخارج من جديد، جلست مريم إلى جانب والدتها، وأخبرتها بأنها خائفة جداً، ولإزالة الخوف الذي شعرت به الطفلة، صفق يوسف بكلتا يديه، وبدأ يردد أغنية شعبية، تبعه الجميع، وطلبوا من الطفلة مشاركتهم بذلك، ترددت بادئ الأمر، ولكنها شاركتهم في النهاية، وطحى صوت الأغنية على صوت الرصاص ..

كانت نور تشعر بجوع شديد، ولكنها اكتفت بعد تناول قطعة من الخبز و القليل من الرز والدجاج، واستغلت انشغال الجميع بالغناء، فذهبت لتعد لهم الشاي، ثم جلست تنتظرهم أمام شاشة البلازما.

ظهرت لها فتاة حسناء تجري حوار مع رجل يرتدي بدلة أنيقة، كان الرجل يظهر لها احتراماً شديداً، ويبدل جهداً كبيراً للظهور بأفضل صورة، تحدث عن رأيه في الحرب الأخيرة، وأخذ يحلل الأمور وي طرح فرضيات لمستقبل هذه الحرب، كان يبتسم لها وهو يقول بأن الحرب ستطول، وبأنها ستضرب البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وعلى الجميع أن يستعد لما هو أسوأ، وعندما سألته المذيعة عن التصريحات التي تتحدث عن إيقاف الحرب في الأيام القادمة، ابتسم وأجابها:

_ هذا لن يحدث أبداً.

لم تكن نور تهتم كثيراً بهذا النوع من النقاشات التي لا نهاية لها، و
دائماً ما تردد

السياسة أفعى عمياء.

والسياسيون شياطين بملامح بشرية.

يتنفسون الكذب، ويعيشون على معاناة الآخرين.

أمسكت بالجهاز الخاص بالبلازما وأخذت تقلب في المحطات
التلفزيونية ...

كانت المحطة الأولى تبث برنامجاً وثائقياً عن حياة رجال الفضاء،
ومعاناتهم في التعامل مع الأشياء المتطايرة من حولهم، أما القناة
الأخرى فقد كانت تعرض الدقائق الأخيرة لمباراة كرة القدم في
الدوري الفرنسي.

رن هاتفها المحمول، وكان اسم باسل يظهر على الشاشة، سارعت
إلى الضغط على زر الإجابة.

_ نور، كيف حالك؟

كان صوته مضطرباً

_ ماذا هنالك؟

_ نور، لقد خرج ضياء من السجن، هل تسمعينني، لقد عاد ضياء.
وضعت يدها على فمها وكبتت صرخة مدوية، توقفت الحياة من
حولها لعدة ثوان، قبل أن تلتقط أنفاسها مجدداً.

_ باسل، هل أنت متأكد من ذلك ؟

_ نعم، منذ قليل تحدثت إلى والده وأخبرني بأن ضياء إلى جانبه،
وأنهم الآن في الطريق إلى المنزل.

هل تسمعينني نور ... ألو ألو..

تهاوى جسدها على أرض الغرفة بعد أن عجزت قدمها عن حملها،
كانت عيناها المغمضتان مبللة بدموع الفرح مع ابتسامة تعلقو
قسمات وجهها، وعلى الرغم من أن جسدها كان ملقى على الأرض،
إلا أنها أحست بأن الحياة عادت إليه من جديد

على الطرف الآخر ارتدت ندى حذاءها الوردية، المخصص
للمناسبات السعيدة، ووضعت على شعرها الأشقر شرائط بيضاء
وزرقاء أهدتها إياها والدتها في عيد ميلادها الأخير، وصنعت لها
والدة إسراء جديلتين من خصلات شعرها المتبقية، حملت دميتهما
ووقفت إلى جوار باب المنزل الخارجي تنتظر قدوم ضياء ...

بدأ الأمر عندما تلقى والدها اتصالاً هاتفياً كان ينتظره طوال اليومين الماضيين، استمر الاتصال لثوانٍ قليلة، وما إن انتهى من ذلك الاتصال حتى صرخ بأعلى صوته:

_ الحمد لله، الحمد لله.

لم ينتظر كثيراً، ارتدى ملابسه وخرج من المنزل على عجل هو وصديقه نزار، بعد أن أخبره المتصل بضرورة الحضور على وجه السرعة.

كانت والدتها تجري اتصالات مع أقربائها وتتحدث لهم عن الخبر السعيد، وفي النهاية ارتدت ملابس الصلاة الفضفاضة ووقفت تصلي شكرياً لله.

تأخر والدها كثيراً، كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة السابعة والعشر دقائق، ولكنها لم تكن تشعر بالوقت، تحدثت إلى إيميلى:

_ كان يتوجب علي الذهاب مع والدي وعدم الانتظار هنا.

لم تلتفت الدمية إلى كلماتها هي الأخرى، بل كانت تنظر إلى جهة الباب الخارجي بهدوء تام، أحست باقتراب طيف أحد ما من وراء الباب، وقبل أن تضع يدها على المقبض، فتح باب المنزل ...

كان يقف أمامها ما تبقى من ضياء، حليق الشعر، وقد خسر كثيراً من وزنه، وكان ينظر نحوها بعينين مغرورقتين، ألقت ندى بالدمية

وركضت نحوه، لم يستطع تحريك جسده وهو يشاهد الطفلة وهي تقترب منه، حملها بين يديه وضمها إلى صدره، أخذ يقبل يديها ورأسها ودخل الاثنان في نوبة بكاء شديدة، وعندما سمعت والدته صوت بكائه قطعت صلاتها وركضت نحو الباب الخارجي لاستقباله

_ حين تضع رأسك على صدر أمك بعد غياب طويل، سوف تشعر بأن جبلاً ألقى من على ظهرك، وبأنك قد عدت لتوك إلى موطنك الحقيقي، حيث الأمان والطمأنينة، يتلاشى السواد الذي كان يحيط بك من كل جانب.

وكأن يد من نور تربت على قلبك وتقول

لابأس عليك ... اطمئن.

٤

من جديد، عاد الى ذلك المكان حيث كان ينتظرها كل صباح، مازالت شجرة التوت على حالها خضراء نضرة، سوى بعض الورقات التي قررت تغيير لونها إلى اللون الرمادي، والمكان مليء بروث الطيور المختبئة داخل الشجرة ..

ها هي تدخل من نهاية الشارع، لم تكن تسير بهدوء كما هي عادتها، بل كانت خطواتها متسارعة، وكأنها تسابق الزمن، تضع يدها على فمها وهي تنظر نحوه من بعيد، اقترب منها.

_ نور.

طغت حالة البكاء عليها، ولم يتمكن من سماع إجابتها، واختلطت مشاعرها بين حزن وفرح، فرح لعودته من جديد، وحزن على الهيئة التي هو عليها الآن.

_ ضياء، هل أنت ضياء ... إني أسمع صوتك مجدداً، يا إلهي، هل هذا حقيقي؟

_ اشتقت لك كثيراً يا نور.

أمسك بيدها، كانت تبكي وتضحك، وتمسح الدموع التي تمنع رؤيته بصورة متكاملة.

_ عدني بأنك لن تتركني مجدداً.

_ ستكونين إلى جانبي دائماً يا حبيبتي.

أخرج لها وردة حمراء ووضعها في كفها

ضمتها إلى صدرها، وكانت وردة جميلة، وأجمل ما فيها بانها.

" وردة بلا دماء "

النهاية

٣ كانون الثاني / يناير ٢٠١٥

يقف العم يوسف والسيد جميل إلى جانب ضياء، ويحاولون طمأنته ليخرج من حالة الخوف التي كانت تسيطر عليه، لم يكن يستمع إلى أحاديثهم عن ضرورة التحلي بالصبر، كان يفكر في شيء واحد ... وهو نور.

فتح الباب على مصراعيه بشكل مفاجئ وخرجت فتاة من قسم الولادة، تغطي جسدها قطعة قماشية زرقاء اللون.

_ من هو ضياء ؟

اقترب نحوها ضياء وأجابها:

_ أنا ضياء، ما الذي حصل ؟

ابتسمت الفتاة عندما شاهدت ارتبأك.

_ مبروك يا ضياء، رزقك الله بطفلة جميلة

تلاشى كل شيء بعد تلك الكلمات، حاول جاهداً أن يجد كلمة مناسبة للرد على تلك الفتاة ولكنه لم يجد، أحاطت به ذارعي والده ودموع العم يوسف.

بكي ضياء كطفل صغير، وطلب من الممرضة أن تسمح له بالدخول والاطمئنان على نور والطفلة، ولكنها أجابت بحدة:

_ متأسفة، التعليمات هنا واضحة بعدم دخول أي شخص كان إلى غرفة العمليات، ولكن يتوجب عليك الدخول إلى مكتب الطبيب للتوقيع على الأوراق المطلوبة.

ثم استدارت نحو الباب.

أراد ضياء القيام بمحاولة أخيرة قبل ذهاب الفتاة.

سوف تتزوجين وتصبحين أمًا، وستعلمين جيداً بشاعة أن يمنعك أحدهم من رؤية طفلك لأول مرة، تذكري كلامي هذا جيداً.

شحب وجهها بشكل مرعب، وكأن صخرة كبيرة ألقيت في مياهها الراكدة.

_ لأول مرة سأتجاوز التعليمات، يا لك من مخادع.

دخل ضياء إلى غرفة العمليات ووجد نور تحمل الطفلة بين يديها وهي تبكي.

كانت آثار الولادة ظاهرة عليها، عينيان ذابلتان، وجه أحمر محتقن، بحة ثقيلة تخفي نبرة صوتها الطبيعية، ضمهما معاً وأخذ

يبكي فرحاً بمجيء ندى، وهو الاسم الذي اختاروه للطفلة، همس لها:

_ قلت لك يوماً ما بأن كل شيء سيتحقق ..

تمه بعون الله ..

فهرس

٥	بطاقة شكر
٧	إهداء
٩	المقدمة
١٥	الفصل الأول
٩١	الفصل الثاني
٢٠٥	الفصل الرابع
٢٣٩	الفصل الخامس